# الفصل الرابع

# وقـــائع وأحـــــداث

obeikandl.com

obeikandl.com

## الأفارقة سبقوا كولمبس إلى أمريكا

طبقًا للتاريخ السائد الآن فإن «كريستوفر كولمبس» قد اكتشف أمريكا، وأن الأهالى الذين كانوا يعيشون هناك هم شعوب بدائية غير مهمة، ولكن الحقيقة أنه قبل أن تطأ أقدام كولمبس أرض الأمريكات كان الأفارقة قد وصلوا إليها قبله بقرون عديدة، وكانوا يعيشون هناك بين أهلها ويتاجرون معهم، وأثروا فى الحضارات الأمريكية على نحو بعيد ونشروا ثقافاتهم بين أهلها هناك.

وقد ظل وجود الأفارقة فيما يسمى بـ «العالم الجديد» مجهولاً حتى وقت قريب، وساهم المؤرخون بجزء فى إخفاء هذا التاريخ؛ لأن الوجود الإفريقى فى أمريكا يمثل تحديًا كبيراً لما يدعيه التاريخ الحديث من أن شخصًا اسمه «كريستوفر كولمبس» هو من اكتشف أمريكا. . إلا إذا كان الاكتشاف يعنى الوصول بعد الآخرين بقرون!!

ويرجع الوجود الإفريقى فى الأمريكات إلى ما قبل التاريخ الأمريكى، فالحضارة المصرية وصلت إلى الأمريكات حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد، ووصل «الماندنجو» من غرب إفريقيا إلى هناك فى حوالى ١٣٠٧ ميلادى، قبل أن تظهر رحلة كولمبس فى الأفق بعد.

وقد كشفت الدراسات، التى قام بها العلماء الإفريقيون الأمريكيون مثل الدكتور «إيفان فان سرتيما» الذى نشر كتابًا عام ١٩٧٧م بعنوان: «إنهم جاءوا قبل كولمبس»، عن دلائل قوية تؤكد أن الوجود الإفريقى فى الأمريكات كان قبل التاريخ، وأن الأفارقة وجدوا هناك فى العصور القديمة لا بوصفهم عمالاً، ولكن بوصفهم جماعات ذات نفوذ كبير تشغل مراكز النخب فى المجتمع، وتمد المجتمع بعناصر الحضارة التى أتوا بها من إفريقيا قبل القرن الثالث عشر الميلادى، وهو

القرن الذى تلت بعده تجارة الرقيق عبر الأطلنطى، ولكن هذه الحقيقة يصعب قبولها والاعتراف بها من المؤرخين الأوروبيين؛ لأنه ينفى المفهوم الشائع الخاص ببدائية ودونية الزنوج، وهى الفكرة التى راجت لتبرير استرقاق الإفريقيين من القرون التالية.

وأشار الكاتب الإفريقى الكاريبى «رتشارد مور» فى كتابه «دلالة التاريخ الإفريقى» إلى الجهود الكبيرة التى بذلت لإنكار كل شىء فى التاريخ بالنسبة لإفريقيا والشعوب الإفريقية، وأن مهمة تزييف التاريخ الإفريقى كانت متعمدة لتبرير الاسترقاق.

## رحلة الماندنجو[1] ١٣٠٠ ميلادية:

إن البحوث الأثرية وبحوث الحفريات أظهرت الحملات الإفريقية التى جرت عبر الأطلنطى إلى أمريكا بين عامى ١٣٠٧، و١٣١٢ بعد الميلاد. فقد ذكر العمرى المؤرخ الإسلامى فى القرن الرابع عشر فى كتابه «مسالك الأبصار»: «أنه عند زيارة السلطان «منسى كن كن موسى» الذى يعد أعظم سلاطين مملكة مالى على الإطلاق وأبرز شخصية فى تاريخ قبائل الماندنج، ذكر أن منسى عندما توقف فى القاهرة، وهو فى طريقه إلى مكة للحج عام ١٣٢٤، حدثه عن حملات الماندنجو عبر الأطلنطى، وأن سلفه قاد حملتين من غرب إفريقيا لكشف حدود الأطلنطى، قال العمرى: عندما سألت السلطان «منسى موسى»: كيف حدث أن وجدت كل هذه القوة؟ أجاب: إننا من بيت تنتقل فيه السلطة والقوة بالميراث، وأن الحاكم الذى

(١) قبائل الماندنجو هى مؤسسة دولة مالى أقوى وأغنى الدول الإفريقية التى ظهرت فى غرب إفريقيا، ويميزها عن غيرها الدور الكبير. الذى نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل مملكة، وكذلك الدور البارز فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا.
وقد سادت قبائل الماندنجو لبضعة قرون المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى. وظهور الماندنجو على مسرح التاريخ الإفريقى لأول مرة يرجع إلى زمن بعيد، والمعلومات قليلة عن التاريخ القديم للماندنجو؛ وذلك بسبب ندرة المصادر واختلاط الروايات الشفهية بالأساطير، ثم إن السجلات والوثائق الخاصة بمملكة الماندنجو لم تدون إلا بعد مرور نحو سبعة قرون أو ثمانية من ظهورها، علمًا بأن هذه الوثائق والسجلات لم تعن إلا بأخبار الأسر الحاكمة دون الرعايا. وقد ظلت مملكة الماندنجو تنمو وتتسع تدريجيًا فى منطقة أعالى النيجر، وبدأ المعروف عن تاريخ هذه المملكة يتضح منذ القرن السابع الميلادى، وبلغت ذروة مجدها خلال القرن الرابع عشر.

سبقنى لم يكن مؤمنا بأن ثمة استحالة فى اكتشاف حدود البحر المجاور (يقصد المحيط)، لقد رغب فى أن يكتشف وأصر على خططه، وقد أعد مائتى سفينة حملها كلها بالرجال وشحن عدداً مقابلاً من السفن بالذهب والماء ومواد التموين الكافية لعدد من السنين، وقال للرجال الذين يقودهم: لا تعودوا إلا إذا بلغتم أقصى المحيط أو إذا نفد طعامكم وشرابكم. ومضى وقت طويل قبل أن يعود أحد منهم. وفى النهاية فإن سفينة واحدة عادت للظهور، وعندما سئل عن الباقين أجاب ملاحها: لقد أبحرنا لزمن طويل، وواجهنا فى منتصف المحيط شيئًا أشبه بالنهر وتياره شديد، وقد أبحرت السفن ودخلت فى هذه المنطقة واختفت ولم تعد، أما بالنسبة لى فقد عدت إلى حيث كنت ولم أدخل فى التيار. ولكن السلطان لم يشأ أن يصدقه فأعد ألفين من القوارب بالقوة المناسبة وترك لى السلطة، وسافر هو مع رفاقه فى المحيط. وكان هذا آخر وقت رأيته فيه ورأيت الآخرين أيضًا، وبقيت أنا الحاكم المطلق للمملكة».

إن السلطان الذى ذكره منسى هو «أبو بكر الثانى» السلف المباشر لـ «منسى موسى» وهو الذى شن تلك الحملة، وكانت الحملة من المقدر أن تصل إلى أمريكا أو مواقع أخرى فى الكاريبى أو فى خليج المكسيك. وطبقًا لما ذكره العالم الجزائرى «محمد حميد الله» فإن أسطول (حملة أبى بكر الثانى) كان يمكن أن يصل الكاريبى فى الوقت الذى قرر القائد فيه أن يعود بسفينته.

لقد كان الفن والتكنولوچيا فى بناء السفن متطورين وجيدين فى إفريقيا من النوبة إلى الأجزاء الأخرى من القارة. وإن «القانى» وهو المؤرخ التمبكتو فى تاريخ الفتح الإسلامى عرفنا أن «أسكيا إسحاق» ١٥٩١ م وهو آخر سلاطين مملكة السنغى فى غرب إفريقيا، قد استخدم مائتى سفينة فى نهر النيجر؛ ليخلى ساحته من الجيش المراكشى المتقدم.

وبعد نحو ٢٠٠ سنة من زيارة «منسى موسى» لمكة، فإن «كرستوفر كولمبس» فى كتابه «صفحات لكريستوفر كولمبس» شهد باستمرار حملات الماندنجو للأمريكات، وقال: «إن سفنًا تجارية من غرب إفريقيا كانت تغادر شاطئ غينيا دوريًا وتبحر إلى وسط أمريكا محملة بالذهب والبضائع الأخرى، وهى التى أدخلت فن سبك الذهب وخلطه هناك».

كما كتب «كولمبس» : أن هنود أمريكا يأتون بمناديل من القطن منسوجة نسجًا رقيقًا ومشغولة بالألوان، مثل ما يشترى من غينيا ومن أنهار سيراليون بغير اختلاف. إن تجارة الذهب للماندنجو وتجارة الملابس المنسوجة المسماة «المئزر» (ملابس تصنع كثيراً من ألوان متعددة وتستخدم كرداء واحد ويصنع منها قفاطين) مع هنود أمريكا، قد اكتشفها كولمبس وذكرها فى يومياته.

وإن المراكشيين فى شمال إفريقيا الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبى لأوروبا ، كانوا يتاجرون مع ممالك الماندنجو وأدخلوا المئزر إلى إسپانيا، ومن ثم جاءت معرفة كولمبس بهذه الملابس.

ويذكر د. ڤان سرتيما فى كتابه عن«الوجود الإفريقى المبكر فى أمريكا» : أن الهنود الحمر ذكروا لكولمبس وآخرين ممن وصلوا إلى جزر الهند الغربية بعد سنة ١٤٩٢م بقليل أن الشعب الأسود الذى عرف باسم الغينى الأسود أتى بالذهب إلى هذه الجزر، وأن أسماء الذهب وهى جوانا وكونا وكوانى وجوانين، أتت مباشرة من أسماء الماندنجو للذهب وهى غانا وجانا وكين وكانين وغانين.

وكتب «البكرى» المؤرخ الإسلامى ١٠٦٧ ميلادية يقول: إن الشعب أهل غانا القدامى يلبسون القطن والحرير وغيرهما. وبعد مائة سنة كتب الإدريسى المؤرخ الإسلامى ملاحظًا أن شعب سيلا وتكرور وغانا يلبسون المئزر.

إن صناعة تفصيل الملابس وجدت فى غرب إفريقيا قبل وصول الأوروپيين إليها بكثير، والمئزر فى غانا وساحل العاج لم يكن مما أدخله الأوروپيون أو العرب، ولم يكن المئزر مجرد لباس، إنه يتضمن رمزًا وفلسفة للناس لأكثر من عشرين رمزًا مقدسًا يعبر عن قيم أخلاقية وتصورات فلسفية يمكن أن تتوحد مع شرائع مصر القديمة.

وفى هندوراس فإن قبائل الماندنجو والجارا والجوابا التى كانت مسلمة، كانت تسمى نفسها «الماميز»، وهو شكل من أشكال نطق الكلمة العربية الإمامو أو الإمام وتعنى القائد، وعندما نزل الأوروپيون إلى جزيرة «سان ڤان سان» وجدوا شعبين متميزين من البشرة الصفراء والبشرة السوداء، وكان ذلك قبل ظهور تجارة الرقيق.

كان الماندنجو الذين يشغلون أماكن متنوعة فى جزيرة «سان ڤان سان» ويألفون

الأرض، يرحبون فى القرن الخامس عشر بالأفارقة الهاربين من العبودية من المعسكرات الموسمية التى كانت تنتشر فى جزر الكاريبى، وفى هذه المعسكرات كانت تجرى عمليات مادية ومعنوية لإخضاع إرادة المقاومة، عن طريق الجلد والحرمان من الطعام بما يجردهم من إنسانيتهم وولائهم للذات. وكانت هذه المرحلة الأخيرة لعملية بدأت فى السفن من ساحل غينيا قبل الرحلة إلى مناطق أخرى فى العالم الجديد. وكانت جزيرة چاميكا من أسوأ المعسكرات الموسمية سمعة، وفيها خاض العبيد الإفريقيون حروبًا متطاولة لتحرير أنفسهم، حيث كان الأفارقة يهربون من المعسكرات الموسمية ومن معسكرات العمل ينشدون الهروب.

إن واحداً من هؤلاء وهو القائد «جادجوى» وهو من أصل غينى (ولفظ كادجوى مأخوذ من الاسم الغينى كوادجو ويعنى الولد الذى ولد يوم الاثنين)، هذا القائد حارب الإنجليز نحو عشر سنوات، وظل يقاوم جيشًا يتكون من ١٨٠٠ جندى إنجليزى، فضلاً عن ميليشيا يربو عددها على ثلاثة آلاف رجل. وصف المؤرخ الإنجليزى «ب. شارل لوك» هذه الحروب بأنها أول مرة فى تاريخ الأمريكات أجبرت الدولة المستعمرة على الاعتراف بحقوق رعاياها فى الاستقلال، لقد حدث هذا قبل نصف قرن من حصول أمريكا الشمالية على استقلالها و ٧٠ سنة من استقلال السود فى هاييتى.

وفى عام ١٧٩١م فإن الإفريقيين من سورينام الذين كانوا يقودهم كابتن «آدو» (وهو أيضًا اسم غانى يعنى من يولد اليوم العاشر)، حاربوا الهولنديين لمدة ٣٦ سنة قبل أن توقع نهائيّا معاهدة السلام.

### رحلة نوبيا كيمت قبل الميلاد:

كان الوجود الإفريقى المبكر فى الأمريكات هو وجود شعب نوبيا كيمت، ثبت ذلك بالاكتشاف الذى تم ١٨٥٨م لرأس ضخم ذى ملامح نوبية يبلغ ثمانية أقدام عرضًا و ١٨ قدمًا طولاً، ويرجع تاريخه إلى ما بين عامى ٨٠٠، و ٦٠٠ قبل الميلاد. وقد اكتشف هذا الرأس فى قرية تريزابوت فى المكسيك، واكتشف بعد ذلك فى أمريكا الجنوبية سبعة عشر رأسًا أخرى.

فى ١٨٦٩ م كتب «جوزى مجلار» الباحث المكسيكى فى القرن التاسع عشر وصفًا مختصراً عن الآثار فى المكسيك قال: «فى ١٨٦٢م كنت فى إقليم سان أندريه تكستلا، وعلمت فى تجوالى أن رأسًا ضخمًا اكتشف من الأرض من بضع سنين مضت فطلبت أن أذهب لرؤيته، وعندما ذهبت صدمتنى المفاجأة كان عملاً رائعًا من أعمال الفن. . كان تمثالاً عظيمًا بغير مبالغة، وما أدهشنى هو الطابع الزنجى الإثيوبى الذى يمثله، وتصورت أن الزنوج كانوا هنا فى هذا البلد، وكان ذلك فى الحقبة الأولى من تاريخ هذا العالم».

إن هذه المقالة ومطبوعات أخرى تضع الإفريقيين بشجاعة فى ارتباط مع أمريكا القديمة، ولكن ذلك يقابل بالصمت من الأساتذة والباحثين الأوروبيين والأمريكيين رغم الدلائل المادية الموجودة على الأرض، ومنها هذا الرأس الضخم الدقيق النحت المكتمل الملامح الزنجية، وهذا مما يؤكد الوجود الممتد للأسلاف الأفارقة فى هذا الجزء من العالم.

فى سبتمبر عام ١٩٧٤م، عقد المؤتمر الواحد والأربعون لعلماء الأمريكات فى المكسيك، وفيه تحدث الدكتور «أندريه فايرز نسكى» وهو أحد الخبراء العالميين المتخصصين فى الشئون الأمريكية، أكد أن جماجم إفريقية وجدت فى مناطق عدّدها وذكر أسماءها فى المكسيك، كذلك قال «ألكسندر ثان وثنو» مؤرخ الفنون الألمانى: إنه جمع مجموعة مهمة من التماثيل وجدت فى كولومبيا تمثل رؤساء إفريقيين ورجال دين وراقصين وضاربى طبول، ولكنه نُصح بألا يطلق لفظ نجرو على هذه الآثار، وإنما يقول نجرويد أى لا يقول زنجى وإنما زنجوى؛ لأن الزنجوية قد تعنى أن هؤلاء لم يأتوا من إفريقيا ولم يأتوا من الزنوج الإفريقيين، نُصح بذلك لكى يستبقى احترامه فى الدوائر الأكاديمية؛ لأن بعض العلماء يعارضون بشدة وجود علاقات تمتد من إفريقيا عبر الأطلنطى، حتى إن رئيس قسم الأنثولوپولچى فى جامعة ييل فى الولايات المتحدة وهو حجة فى شأن أمريكا الجنوبية، أنكر أن تكون الشفاه الغليظة والأنف المفرطح الخاصة بالرأس الكبيرة والرءوس المكتشفة لأشكال بشرية، وإنما أرجعها إلى أن النحاتين الأرثوذكس لم يريدوا أن يخلقوا ملامح حقيقية يمكن أن تتحطم.

إن أوروبا برغم انبعاثها المتأخر نسبيّا فى مراحل تاريخ الإنسانية يقال إنها تحوز استمرارية تاريخية وأرشيفية ، ولكن اكتشاف مثل الرأس الضخم والتماثيل الأخرى فى أمريكا يؤكد بالدليل المادى استمرارية التاريخ الإفريقى العظيم الذى يعود إلى تاريخ النوبة ومصر الفرعونية .

وفى الحقيقة فإن بداية الاستمرارية التاريخية الأوروبية من خلال الإفريقيين الذين سادوا إسپانيا وروما (إيطاليا)، ومما يثبت بالوثائق فإن أكثر من خمسة أباطرة حكموا روما كانوا من النوبيين، منهم «فلافياس هونورياس» ٣٩٥ بعد الميلاد، والإمبراطور «سبتيماس سيفيرس» ١٩٣ م الذى أقام تمثال هانيبال فى روما وفى ٢٠٢ م زار مصر الفرعونية .

## حضارة الأولمك ما بين ١٢٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد

إن كثيراً من الوثائق المكتوبة التى تركها «الأولمك ـ Olmec» فى أمريكا الجنوبية قد خضعت لتدمير منظم بواسطة المستكشفين الأوروپيين للعالم الجديد. إن الناس الذين حرقوا مكتبات المراكشيين الأفارقة فى إسپانيا هم أنفسهم الذين دمروا الوثائق المكتوبة لحضارة الأولمك، والأولمك لفظ مشتق من الأولم وهو يعنى المطاط لدى قبائل الاوزديك فى المكسيك، ثم صارت تترجم باعتبارها الناس الذين أتوا من أرض المطاط، وكانت مدينة لاڤنتا فى المكسيك هى عاصمة حضارة الأولمك).

كتب الأسقف الإسپانى «دياجودى لاندا» من نيوقاطان كتب يقول: «إن هؤلاء الناس استخدموا أشكالاً معينة أو حروفًا كتبوا بها كتبهم وشئونهم القديمة وعلومهم، لقد وجدنا عدداً كبيراً من الكتب تحتوى على خزعبلات وقد حرقناها كلها، وقد أسفوا هم لذلك، ونحن مندهشون لأسفهم».

كذلك كتب «أنطونيو دى كويداد» المؤرخ الإسپانى فى ١٥٨٨ بعد الميلاد يقول: «إن الإسپانيين حرقوا كثيراً من الكتب التاريخية للقدماء التى تتحدث عن بداياتهم وتاريخهم».

إن المستوطنين الأوائل فى أمريكا الوسطى كانوا فى الفترة ما بين ثلاثة آلاف إلى ألفين قبل الميلاد، ولكن الحضارة الأساسية التى أعقبتهم كلهم كانت للأولمك التى نشرت نفوذها عبر الحضارات الأمريكية كلها.

إن حضارة الأولمك فى أمريكا كان لها ثلاثة تأثرات كبرى: **الأثر الأول** هو حضارة شبه المنغولية التى اختلطت مع أمريكى عصر إيكا، و**الأثر الثانى** كان الإفريقيين الزنوج، و**الأثر الثالث** أتى من شريط سكان البحر المتوسط. ولكن كان الوجود النوبى ذا نفوذ فعّال فى حضارة الأولمك وفى ذروتها، وقد أتى بتأثير ثقافى ليس له مثيل انتقل من النوبة إلى العالم الجديد.

وبلغت حضارة الأولمك ما بين ١٢٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد جواتيمالا وهندوراس، ووصلت إلى وسط المكسيك وكوستاريكا وعلى طول شاطئ أمريكا القديم حتى پنما، ولكن كانت لاڤنتا فى المكسيك هى ما أرسى الأولمك أساسها فى أمريكا القديمة، ويرمز لها عدد من التكوينات الهرمية والكتابات الهيروغليفية وهو أثر تمثلته الحضارات الأخرى فى أمريكا.

إن الجدل فى الأوساط الأكاديمية لا يدور حول ما إذا كان الإفريقيون قد شغلوا مراكز فى الحضارة الأمريكية القديمة، ولكن الجدل يقوم حول من أى جزء من إفريقيا أتوا من آلاف السنين. وعلى خلاف التقديرات التاريخية فإن الإفريقيين لم يبحروا فى زوارق مصنوعة من جذوع الأشجار، ولكن عبر مراكب متطورة. وكانت مئات من المراكب عابرة المحيط من أجل التجارة والسيطرة فى العالم القديم، أوجدتها المهارة والتكنولوچيا التى كانت لدى الإفريقيين القدماء بشأن بناء السفن مثلما وجدت فى قرطاچ فى تونس، ثم لدى المراكشيين الذين كانوا يتاجرون مع ممالك إفريقيا الغربية فى القرن الثانى عشر.

إن أول هرم فى أمريكا بنى فى مكان كان يقام فيه الاحتفالات، ويعلق د. إيڤان ڤان سرتيما على أهرامات أمريكا فى كتابه عن الوجود الإفريقى فى بدايات أمريكا يقول: «إن الأهرامات توضع على محور الشمال والجنوب مثل كل أهرامات مصر والنوبة، وإن الأهرامات تجمع ذات الوظائف المزدوجة باعتبارها قبراً ومعبداً. وإن الهرم الكبير ومساحته ٢٢٥ متراً مربعًا له قاعدة هرمية تماثل فى نسبها قاعدة الهرم الأكبر فى مصر. وفى الحقيقة فإن مستوى القياسات الذى تطور بواسطة الرياضيين ورجال الفلك فى مصر القديمة، قد وظف فى أمريكا القديمة، واتبع ذلك الأجانب (يقصد الإفريقيين) الذين رحب بهم الأهالى». وطبقًا لما يقول د. سرتيما

«إننا إذا اختبرنا بعض خوذات هؤلاء الناس، فإننا نجد أنها شبيهة بخوذات المصريين القدماء فى عهد رمسيس وفى الألف الأولى قبل الميلاد. إنها تغطى الرأس كله وظهر الرقبة ولها رباط يربطها فى الرأس ويقع فى مقدمة الأذن».

إن التشابه القوى بين الحضارة الأولمك وبين مصر القديمة يمكن ملاحظته فى المجال العلمى والثقافى، فمثلاً الزورق المقدس لملوك المصريين القدماء وجد أيضًا فى رسومات الأولمك بنفس الوظائف، ورمز الحياة الإفريقى عنخ مثل ما فى الأولمك الصليب المقدس بذات الوظائف والاسم يسمونه فى الأولمك شجرة الحياة، وكذلك الأهرامات فى المكسيك تماثل أهرامات مصر القديمة. والآلهة التسعة فى عقيدة القدماء المصريين المشار إليهم فى كتاب الخلق يمثلون ما وجد فى أمريكا وسجل فى أهرامات المكسيك بالآلهة التسعة فى الليل.

ويقول د. إيڤان سرتيما: «إنه من المهم أن نفهم ما هوالعبء الكبير فى الإثبات المطلوب لتأثير النفوذ الثقافى، إن اكتشاف وجود الأسلاف الأفارقة فى الأمريكات ليس مهمًا بقدر ما هو الكشف عن روح البحث عند الإفريقيين التى ساقتهم إلى اكتشاف أمريكا، وهو ما يدفع الإفريقيين المحدثين إلى نشدان التحرر الروحى والثقافى».

* * *

# الفـلاشـــا

فى عام ١٩٧٦م دعتنى جبهة تحرير إريتريا لزيارة المناطق المحررة، كانت الجبهة فى ذلك الوقت قد استطاعت أن تحرر ثلثى أراضى إريتريا من الوجود الإثيوبى، الذى فُرض عليها بالقوة منذ عام ١٩٥٢ م حين منحت الأمم المتحدة الإمبراطور هيلاسيلاس حق إدارة إريتريا، فضمها الإمبراطور عنوة عام ١٩٦٢ م وأصبحت جزءاً من إثيوبيا[١].

(١) فى مؤتمر برلين ١٨٨٤م اقتسمت الدول الاستعمارية شرق إفريقيا وكانت إريتريا من نصيب إيطاليا، وأصبحت إريتريا مستعمرة إيطالية من عام ١٨٩٠م ، واستمر الحكم الإيطالى بها حتى عام ١٩٤١م عندما منيت إيطاليا بالهزيمة على يد الحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية. وفى اتفاقية باريس للسلام ١٩٤٧م أجبرت إيطاليا على تخليها عن مستعمراتها السابقة، وكان على الحلفاء أن يقرروا مصير إريتريا.

طالبت إثيوبيا بضم إريتريا لتكون مخرجًا لها على البحر الأحمر، وطالب الشعب الإريترى بالاستقلال، وفى أكتوبر ١٩٤٨م أحيلت قضية إريتريا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، واقترحت أمريكا وبريطانيا أن تنضم إريتريا لإثيوبيا، ورفض الشعب الإريترى رفضًا تامًا هذا الاقتراح الأنجلوأمريكى.

وفى ديسمبر ١٩٥٠م أصدرت الجمعية قراراً بتسوية فيدرالية بين إريتريا وإثيوبيا، وعينت الأمم المتحدة مندوبًا ساميًا لإريتريا ليضع القرار موضع التنفيذ، وخرج بمسودة دستور عام ١٩٥٢م الذى يسمح بتشكيل حكومة إريترية تختص بالشئون الداخلية مع إحالة الشئون الخارجية لمجلس مشترك فيدرالى مكون من ٦ إريتريين و ٦ إثيوبيين. وفى يناير ١٩٥٣م أعلن استقلال إريتريا وشكلت حكومة إريترية بهيئاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية المستقلة تماما عن الفيدرالية. ولكن أمريكا تحركت بكل قواتها ووقعت مع إثيوبيا اتفاقية دفاع مشترك مدتها ٢٥ عامًا، وفى عام ١٩٥٥م أبلغ ممثل الإمبراطور فى الأمم المتحدة أنه ليس لإريتريا شئون داخلية وأخرى خارجية وكلها تابعة لمكتب الإمبراطور الذى اتخذ سلسلة من الإجراءات لإنهاء كل المؤسسات الإريترية. وفى عام ١٩٥٨م أنزل العلم الإريترى ورفع العلم الإثيوبى. وفى عام ١٩٦٠م أعلنت إثيوبيا أنه لا يوجد شىء يسمى بالحكومة الإريترية، و فى عام ١٩٦١م لم يبق أى شكل لقرار الأمم المتحدة بالفيدرالية . وفى عام ١٩٦٢م حل الإمبراطور رسميّا صيغة الفيدرالية، واحتلت وحدات الجيش الإثيوبى الأراضى الإريترية ،وأعلنت الأحكام العرفية وفرض الحكم العسكرى. ومنذ ذلك التاريخ أعلن الشعب الإريترى الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإثيوبى بقيادة جبهة تحرير إريتريا.

كانت الرحلة مثيرة وثرية، قضيت ٢١ يومًا تحت القصف الإثيوبى انقلب فيها النهار ليلاً والليل نهارًا؛ إذ كان علينا أن نتحرك فى الظلام، ونختفى مع بزوغ الشمس؛ لأن الطيران الإثيوبى كان يمارس قصفه أثناء النهار فقط فكان لا يستطيع الطيران فى الظلام.

عند الغروب كانت الحياة تدب فى المدن والقرى المحررة، وكان مرافقى عمر يقص علىّ الكثير من المعلومات الغريبة والمثيرة عن هذه القرى وناسها، أصلهم طبيعتهم عاداتهم تقاليدهم معتقداتهم. وفى يوم كنا تحت سطح تل مرتفع ذكر كلمة «الفلاشا»، قال: فوق هذا التل يعيش قوم يسمون الفلاشا، وهم شعب غريب الأطوار يميل إلى العزلة ويبتعد عن المجتمعات الأخرى ويتوجس من الغير ويهرب منهم، يسيطر الهدوء على أماكنهم حتى تبدو مهجورة؛ لأنهم يتحركون ويعملون فى الليل فهم لا يثقون بأحد، وهم ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة جدًا، يمتهنون الحدادة وصناعة الفخار ودبغ الجلود وصناعة السلال من القش.

كان عمر يتحدث عنهم بشكل مشوق ملك عليه كل حواسه، وقال كم يتمنى أن يتاح له دخول هذه الأماكن ليكشف غموض هذا الشعب، واسترسل فى الحديث عنهم حتى انتقل حماسه إلىّ فقلت له مازحة: عندما تحرروا هذه المنطقة سأكون أول من يأتى لزيارتها معك.

كانت هذه أول مرة أسمع كلمة الفلاشا وبدت غريبة لى، ومر الزمن ونسيت الزيارة والفلاشا حتى سمعت فى نشرة أخبار إذاعة لندن العربية (يوم ١٤ يناير ١٩٨٥م) خبرًا جاء فيه أن هناك مجموعة من اللاجئين الفلاشا وصلت إسرائيل قادمة من السودان. وفى هذه اللحظة عادت بى الذاكرة إلى رحلة إريتريا، واسترجعت كلام مرافقى عمر عن الفلاشا، وازددت شوقًا لمعرفة المزيد عن هذا الشعب الغريب الأطوار.

### أصل الفلاشا

حتى بداية عام ١٩٨٥ م لم يكن وجود يهود الفلاشا معروفًا بالنسبة إلى ٩٩٪

للرأى العام حتى داخل إسرائيل نفسها. والفلاشا كلمة إثيوبية تعنى المهاجرين أو الغرباء، وهم اليهود الإثيوبيون الذين أقاموا فى منطقة جوندار المتاخمة لحدود السودان، وتختلف الروايات حول أصلهم الذى لا يمكن الجزم به بشكل ثابت. وثمة أربع نظريات فى هذا الموضوع: **النظرية الأولى:** تعود إلى أعماق التقاليد الإثيوبية زمن الملك سليمان وملكة سبأ التى تقول الأساطير الإثيوبية: إن ملكة أكسوم فى شمال إثيوبيا رحلت إلى القدس لتتعلم الحكمة لدى الملك سليمان فاعتنقت اليهودية، وعندما عادت إلى أكسوم ولدت من الملك سليمان ابنًا هو «منليك» مؤسس الأسرة الإمبراطورية الذى كان يدعى الإمبراطور هيلاسلاس أنه حفيده رقم ٣٢٥، وقد توجه «منليك» إلى القدس ليرى والده فسرق قوس العهد، وأخذ مجموعة من نبلاء حاشية الملك سليمان وعاد بهم إلى إثيوبيا.

**النظرية الثانية:** تقول إن الفلاشا ينحدرون من صلب هؤلاء النبلاء، ولكن حين دانت إثيوبيا بالمسيحية خلال القرن الرابع وتحولت البلاد عن اعتناق اليهودية رفض الفلاشا العهد الجديد، أى الأناجيل المسيحية، رفضًا تامًا وبقوا على عقيدتهم.

**والنظرية الثالثة:** تتركز على الهجرة اليهودية، تقول: إن الفلاشا يهود عبروا البحر الأحمر من جنوب شبه الجزيرة العربية متوجهين إلى الشواطئ الإثيوبية.

**النظرية الرابعة الأخيرة:** فترجع أصل الفلاشا إلى يهود هاجروا إلى الجنوب من مصر والسودان، أو من الممكن أن يكون النفوذ اليهودى جاء عبر أكثر من حقبة واحدة ومن أكثر من مكان.

أما من حيث التركيب العرقى فإن الفلاشا سلالة إثيوبية ملكية انتسبت إلى الملك سليمان وملكة سبأ، وعلى هذا فإن الفلاشا بصفة أساسية إثيوبيون وليسوا يهودًا عرقيًا، وثمة عناصر يهودية قوية فى ديانتهم وتتضمن ديانتهم عناصر أخرى.

وللفلاشا لغتهم الخاصة وتقاليد وعادات مختلفة فى الحياة وهوية منفصلة، وتؤكد الروايات أن الفلاشا يعيشون فى إثيوبيا منذ القرن الثانى قبل الميلاد، وأول من كتب عنهم رحالة يهودى فى القرن التاسع عشر يدعى «الدادا»، زعم أن الفلاشا قبيلة مفقودة كانت تعرف باسم قبيلة« دان »ومن هنا جاء اسمهم «الغرباء». وكتب عنهم رحالة يهودى آخر هو «بنيامين موديلا» قال إن الفلاشا جاءوا أصلاً من اليمن. ويؤكد البروفيسور «چوزيف فورتانا» أن الفلاشا ليسوا قبيلة ضائعة، وإنما هم شعوب من شمال إثيوبيا أصبحوا يهودًا فى ظروف غامضة.

وتقول مراجع يهودية إنهم تعرضوا للاضطهاد المسيحى فى القرن الرابع عشر وتمسكوا بيهوديتهم منسحبين من المناطق الساحلية إلى منطقة «جوندار»، حيث بقيت مقرّا لهم حتى الآن.

ظل «الفلاشا» بعيدين عن الحركة اليهودية حتى بداية القرن العشرين عندما زار «فيتلوفيتش» أحد زعماء الحركة الصهيونية الحبشة؛ بهدف إخراج هؤلاء من عزلتهم تمهيداً لتهجيرهم إلى فلسطين فى إطار خطة الهجرة اليهودية، ولكنه وجدهم غير راغبين فى الهجرة ويفضلون البقاء فى مناطقهم فى الحبشة، واتضح له أنه لا فائدة من جلب هؤلاء الفلاشا الذين لا يعترفون بأرض إسرائيل.

ويقال: إنه فى عام ١٩٠٠م اقترح يهودى يدعى«رابورت» على اللورد كرومر أن ينقل اليهود الإثيوبيين إلى السودان ليتوطنوا فيه، ذاكراً أنه يرشح السودان لسعة أراضيه وخصوبتها وصغر حجم السكان، وأن انتقال اليهود الإثيوبيين إليه لا يمثل انتقالا إلى بيئة تختلف عن بيئتهم. ولكن اللورد «كرومر» لم يهتم باقتراح «رابورت» كما لم يجد حماساً من العصبة اليهودية.

وبرز الاقتراح مرة أخرى عام ١٩٠٧م فى تقرير كتبه يهودى آخر يدعى «إبراهام جالانت» إلى المنظمة اليهودية الإقليمية، إذ اقترح أن تكون أوغندا الوطن المختار للشعب اليهودى، ولكن المنظمة الصهيونية لم تكن ترضى بديلاً عن فلسطين وطنًا لليهود.

وعندما تحقق حلم الصهيونية عام ١٩٤٨م بإقامة دولة إسرائيل بدأت المنظمة اليهودية تعد لمرحلة جديدة، وهى مرحلة تجميع يهود الشتات«إلى أرض الميعاد»، واستطاعت أن تنقل أعداداً كبيرة من الجاليات اليهودية فى عدد من الدول الإفريقية، وخاصة من جنوب إفريقيا وزيمبابوى وكينيا وزائير إلى إسرائيل بلغ عددهم حوالى ١٥٪ من مجموع سكان إسرائيل.

## عمليات التهجير

كرست إسرائيل جزءاً كبيراً من تحركها السياسى والاقتصادى والعسكرى فى إفريقيا نحو إثيوبيا، ويعود اهتمام إسرائيل بإثيوبيا إلى عدة عوامل أهمها القرب الجغرافى، وأنها تطل على البحر الأحمر المنفذ الجنوبى لإسرائيل، بالإضافة إلى

وجود يهود الفلاشا الذين يمثلون لديهم واحدة من جماعات يهود الشتات الذين لا بد من تجميعهم.

حاولت إسرائيل فى عهد الإمبراطور«هيلاسيلاس» وأثناء حكم الرئيس «عبود» فى السودان (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤م)، أن تنقل بعضًا من يهود الفلاشا إلى منطقة الفتقة على الحدود الإثيوبية السودانية وتوطينهم هناك. ثم انتهزت إسرائيل ظروف المجاعة والجفاف التى عاشتها إثيوبيا منذ عام ١٩٧٢م، ونشطت المنظمات اليهودية بتقديم المعونات والمساعدات للفلاشا دون سواهم من أهل إثيوبيا، وأخذت تستميل «هيلاسيلاس» لتهجير الفلاشا، ولكنه كان يماطل فى الموافقة؛ إذ كان لا يتصور أن يقتطع منه جزء من شعبه..

وعندما استولى «مانجستو هيلاماريام» على السلطة وأطاح بالإمبراطور «هيلاسيلاس» عام ١٩٧٤م أغمض «مانجستو» عينيه عن هجرة الفلاشا من بلاده على أن تمده إسرائيل بالسلاح، فكانت الطائرات الإسرائيلية تصل إلى«أديس أبابا» حاملة أسلحة لتعود إلى إسرائيل وعليها أعداد قليلة من الفلاشا، وكان هذا يمثل هجرات فردية.

أما الدفعة الأولى لهجرة الفلاشا إلى إسرائيل كهجرة جماعية فكانت فى عام ١٩٧٧م، كانت تضم ٦٢ فرداً، ثم توقفت من جانب الفلاشا؛ لأنهم لم يجدوا ترحيبًا من الإسرائيليين.

كانت عملية التهجير تتم ببطء وبأعداد قليلة، بينما كانت الخطة تقضى بنقل ٢٠ ألفًا من الفلاشا فى زمن قصير، فاقتضى ذلك بأن تتولى أمريكا بنفسها إتمام هذه العملية، ولما كانت العلاقات بين «مانجستو» وأمريكا غير طيبة لا تسمح للولايات المتحدة أن تضغط على «مانجستو»، فاتجهت أمريكا إلى الضغط على حلفائها فى المنطقة، وخاصة الدولة التى تدفق إليها اللاجئون الفارون من الحرب الأهلية ومن المجاعة التى حلت فى القرن الإفريقى بسبب الجفاف، وتدفقت الهجرات الجماعية صوب السودان الذى أصبح أرضًا للاجئين والمطاريد.

هكذا بدأ التفكير يتحول إلى التفاوض مع الحكومة السودانية؛ لتسهيل عملية نقل الفلاشا عن طريقها فى سرية، ورأت حكومة «نميرى» التى مورس عليها ضغط

أمريكى كبير أن تستثمر هذا الموضوع فى الحصول على المزيد من الدعم المالى والعسكرى والحماية الأمنية للنظام الذى بدأ يتصدع.

استمر الجفاف فى إثيوبيا وزادت المجاعة، وارتفعت صيحات الحكومة العسكرية الإثيوبية (حكومة مانجستو) تطلب العون الدولى، ولكن لم تجد سوى الصمت رغم النداءات المتكررة من هيئة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة التى ناشدت المجتمع الدولى لمساعدة هؤلاء اللاجئين ولكن بلا مغيث.

أتاحت هذه الظروف إمكانية ترحيل يهود الفلاشا فى سرية وتكتم، كانوا يُجمعون فى معسكرات خاصة ويمنع على أحد زيارتهم أو الاتصال بهم، وحينما بات مطلوبًا أن يرحلوا بصورة كبيرة وجماعية وبشكل لا يدين الحكومة الإثيوبية ولا يثير الرأى العالمى، حينئذ فقد رُئى الكشف عن قسوة المجاعة فى إثيوبيا فأذاع التليفزيون البريطانى برنامجين صورا بشاعة الأوضاع هناك، والموت والهلاك الذى يواجه أهالى القرن الإفريقى.

تبارت أجهزة الإعلام الغربية ووسائلها المختلفة فى إبراز هذه المأساة الإنسانية، وتركز الاهتمام على إثيوبيا وحدها، فى حين أن بعض مناطق فى السودان كانت تعانى من ظروف أبشع.

سارعت وكالات الغوث الغربية الدولية الأهلية والحكومية إلى المناطق المنكوبة فى إثيوبيا، وأقامت معسكرات لاستقبال اللاجئين الجياع، وحينئذ أصبح من السهل تجميع يهود الفلاشا تحت شعار«غوث اللاجئين»، ثم بدأ الكشف عن عملية التهجير.

## عملية موسى

إن عملية نقل الفلاشا عبر السودان تمت خلال عامى ١٩٨٢، و١٩٨٥م، وعرفت باسم عملية موسى، وتم فيها تهجير ٢٠ ألف يهودى إثيوبى، واتهم بسببها الرئيس السودانى«جعفر نميرى» بالخيانة العظمى، وأثارت استياء الرأى العام العربى، وكانت من أحد العوامل التى عجلت بسقوط نميرى؛ إذ أشيع وقتها أن نميرى ونائبه الأول عمر الطيب كانا يأخذان مقابلاً ماليّا على كل مهاجر يهودى يرحل عن طريق السودان.

كما أثارت جدلاً دوليّا كبيراً جعلت وزير خارجية إثيوبيا يطالب من فوق منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة بتسهيل عودة الفلاشا إلى إثيوبيا ، قائلاً: إن يهود الفلاشا ليست لهم أية صلة بإسرائيل، وأنهم يواجهون فيها إجراءات تمييز عنصرى وحياة غربية بائسة، بعد أن انتزعوا من بيئتهم الأصلية. واتهم الوزير الإثيوبى إسرائيل بأنها استغلت ظروف المجاعة التى حلت ببلاده وقامت بترحيل هذه الطائفة بالقوة.

انتقل الفلاشا عبر طريقين من السودان ومن إثيوبيا مباشرة، فى السودان جُمعوا فى معسكرات انتقالية فى«أكوبو» بالقرب من الحدود الإثيوبية، وفى سبتمبر ١٩٨٤م بدأت رحلات التهجير تحت عين السلطات السودانية وبرضائها؛ إذ كان باستطاعة السودان عرقلة العملية إذا أراد.

وتقول بعض المصادر: إن الفلاشا الآخرين وصلوا إلى إسرائيل عن طريق خط طيران مباشر من منطقة تقع شمال قراهم الأصلية بتعاون وثيق بين الحكومتين الإسرائيلية والإثيوبية، وقامت بعملية النقل طائرات بلچيكية خصصت لذلك. واشتركت فى العملية أيضًا الولايات المتحدة، فأعلن «آلان رومبرج» الناطق باسم الخارجية الأمريكية أن الولايات المتحدة ظلت تعمل بهدوء وتكتم الأمر مع عدد من المنظمات والحكومات لإتمام العملية، وقدمت مساعدات مالية كبيرة لإسرائيل إسهامًا منها فى تمويل نفقات توطين الفلاشا، ووعدت بتقديم المزيد، كما طلبت إسرائيل من يهود أمريكا أن يسهموا بدورهم فى مساعدة نفقات استيعاب هؤلاء .

كان أول من كشف النقاب عن عملية الهجرة هذه «موسى جيلباو» مدير قسم شئون العالم اليهودى بوزارة الخارجية الإسرائيلية وأحد أعضاء الهيئة الحكومية المشكلة لهذه العملية. فقد أدلى بحديث صحفى قال فيه: «إن هناك هيئات خارجية ودولاً أخرى ساعدت فى ترحيل اليهود الإثيوبيين، وأنه عندما يحين الوقت سيكون لنا شرف أن نكشف عن الأفراد والحكومات التى ساعدت فى ذلك».

سارع كلٌّ من النظامين الإثيوبى والسودانى ينفى علمه بالعملية، وأخذ يكيل كل منهما الاتهام للآخر، ولا شك أن كليهما كان متورطًا فيها، فعملية تشتمل على طائرات ومطارات وحكومات أجنبية وأخصائيين اجتماعيين وصحة ووكالات

يهودية، إلى جانب عدد كبير من اليهود الأجانب الذين قاموا بتنفيذها دون أن يصل شيء منها إلى الصحافة المحلية والأجنبية، ولا يمكن أو يتصور أن تتم على الأقل دون علم حكومات المنطقة.

وإن الادّعاء بأن إثيوبيا لم تكن تعرف بها مقولة ساذجة، فلا توجد جهة لديها الجرأة على نقل الآلاف من سكان دولة إلى دولة أخرى دون موافقة الدولة صاحبة الشأن.

أما الحكومة السودانية فقد نفت تورطها فى العملية وأصدرت بيانًا جاء فيه: «أنه مؤامرة صهيونية إثيوبية، وأن الحكومة الإثيوبية استخدمت اليهود كورقة للمساومة مع إسرائيل للحصول على الأسلحة والأموال»، وادّعى البيان السودانى أن بعض الأسلحة التى تم شحنها من إسرائيل إلى إثيوبيا كان الإسرائيليون قد استولوا عليها خلال غزوهم لبنان عام ١٩٨٢م، وأن المعدات العسكرية التى دفع ثمنها نقدًا لأديس أبابا التزمت بها شركة إسرائيلية تعرف باسم «أدميرال» لها مكاتب فى إثيوبيا.

وكان هذا البيان السودانى ردّا على اتهامات أديس أبابا للحكومة السودانية وتدخلها فى الشئون الداخلية لإثيوبيا بمساعدتها وفتح أراضيها لحركات التحرير الإريترية.

### الفلاشا فى إسرائيل

واجه يهود الفلاشا الذين وصلوا إلى إسرائيل منذ السبعينيات صعوبات جمة فى التأقلم على الحياة فى إسرائيل؛ حيث يختلف كل شيء هناك عن طريقة معيشتهم التقليدية، كما لم يعاملوا فى إسرائيل على أنهم يهود حقيقيون، بل أجبروا على أخذ دروس فى الديانة لتتمشى ممارساتهم الدينية مع الممارسات الدينية للطوائف اليهودية الأخرى، وطالبوا باجتياز مراسيم تتم وفق طقوس التعميد قبل أن يسمح لهم بعقد زيجات فى إسرائيل، ويقول حاخامات إسرائيل: إنه لا بد من استمرار تلك الإجراءات؛ لأن يهود الفلاشا عزلوا عن الشعب اليهودى لمدة ألفى عام، ومن ثم فهناك شك فى أن يكون البعض قد تزوج من غير اليهود.

وقد أثارت مشكلة الاعتراف بيهودية الفلاشا خلافات وانقسامات دينية داخل إسرائيل، بحيث استدعى الأمر تدخل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق «بيريز» للتخفيف من تشدد الحاخامات، والتوصل إلى عقد اتفاق مع الحاخامات ؛ كى يقروا بأن اليهود الإثيوبيين يعتبرون طائفة يهودية دون الحاجة إلى إعادة تحويلهم إلى اليهودية بصورة جماعية.

وكان الفلاشا لا يُسمح لهم بالحصول على الجنسية الإسرائيلية، وبالتالى العمل والاندماج فى المجتمع الإسرائيلى، إلا بعد أن «يجدّدوا ديانتهم»، والمقصود بذلك أن تعاد طقوس التعميد فى «حمامات التعميد» اليهودية بالنسبة للنساء، وتعاد طقوس الختان للرجال تحت إشراف الحاخامات حتى بالنسبة للإثيوبيين المختنين بالفعل. وقد اعتبر «الفلاشا» هذه الإجراءات مهانة لهم، ورفض بعضهم الخضوع لها، وانتحر عدد منهم ،وهدد البعض بإشعال النار فى أنفسهم داخل الكنيست احتجاجًا على سوء المعاملة.

وبعد جدل كبير فى الكنيست الإسرائيلى حول هوية الفلاشا اعترفت إسرائيل بهم ،وسقطت آخر تحفظات الحاخامات الإسرائيليين، وطبق عليهم قانون العودة. وإن كان البعض لا يزال يشكك فى نقاء دينهم، ويعلقون ساخرين: أن يهود الفلاشا لا يعرفون ما النقود ؟ أى نوع من اليهود هذا الذى لا يعرف قيمة النقود!!

والحقيقة أن كثيراً من الإسرائيليين أنفسهم حتى من غير الحاخامات يشككون فى حقيقة يهودية الفلاشا، وبالتالى عدم انطباق حق العودة عليهم، وما يمكن أن يسببه ذلك فى انتفاء نظرية النقاء اليهودى عليهم التى روجت لها الدعايات منذ أمد بعيد، ولكن إسرائيل عندما غضت الطرف عن ذلك رأت أن هؤلاء الأفارقة يمكن أن يحلوا كعمالة محل الفلسطينيين، وأيضًا تجنيد العديد منهم فى جيش الدفاع. ولم تمارس إسرائيل نفس الدور والتشدد مع الجالية اليهودية فى جنوب إفريقيا؛ حيث اعتبرتها من الجاليات التمويلية كيهود الولايات المتحدة الأمريكية، ومن جماعات الضغط التى استخدمت فى فترة التفريق العنصرى فى جنوب إفريقيا، ومن أجل مزيد من التعاون بين النظامين العنصريين فى إسرائيل وجنوب إفريقيا.

إن المشكلة الحقيقية ليست فى إثبات نقاء عقيدة اليهود الإثيوبيين المهاجرين،

ولكن المشكلة أن يفقد هؤلاء هويتهم الثقافية وأسلوب حياتهم حين يُفرض عليهم أن يصهروا فى بوتقة الشعوب المختلفة التى تمثلها إسرائيل ؛ ذلك أن يهود الفلاشا كانوا يعيشون دائمًا فى عزلة منذ الزحف المسيحى ثم الإسلامى الذى ظهرت آثاره فى إثيوبيا ، وهم إن كانوا يحترمون «قانون موسى» فهم يجهلون العبرية والتلمود .

## دوافع عملية التهجير

والسؤال . . ما الدافع وراء هجرة الفلاشا ؟ هل هى عملية إنسانية كما تدعى إسرائيل ، أم أنها تنطوى على رغبة فى زيادة عدد سكان إسرائيل فى وقت أضحت فيه الهجرة اليهودية إلى الخارج تفوق الهجرة إلى الداخل؟ وما أعمار المهجرين؟ وأين يستوطنون؟

من الصعب الادّعاء بالدوافع الإنسانية ؛ ذلك أنه من سمح له بالهجرة هم الشباب والأطفال ، أما كبار السن والشيوخ فهم إما تركوا عنوة فى المعسكرات ، أو قيل لذويهم إنهم ماتوا أثناء عملية الترحيل ؛ لأن كبار السن فى نظر السلطات الإسرائيلية إلى جانب كونهم غير منتجين ، فهم أيضًا من الصعب أن ينصهروا فى بوتقة المجتمع الإسرائيلى ، فهم يتمسكون بلغتهم وثقافتهم المتميزة ، ويميلون إلى استمرار ممارسة تقاليدهم الموروثة ، أما الصغار فهم أسرع فى تلقى التعاليم الإسرائيلية ذات الأسلوب المختلف تمامًا . وقد بدأ بالفعل عدد كبير من الصغار يبتعد عن ممارسة طقوس آبائه الدينية وأصبحوا كغيرهم من أطفال إسرائيل .

إن العملية فى حقيقتها ترجع إلى الرغبة فى تنمية القوة العسكرية ، فالهدف السياسى هو الأساس ؛ ذلك أن سوء الحالة الاقتصادية والتضخم وحالة الحرب الطويلة فى إسرائيل ، كل هذا يدعو إلى الهجرة منها لا إلى استيعاب أعداد جدد غير مؤهلة ولا مدربة ، وقدرات الفلاشا فى إمكانية استخدامهم ضئيلة .

إن الحكومة الإسرائيلية ترى أنها تحتاج اليهود الإثيوبيين كدروع بشرية بتوطينهم فى أراضى الضفة وغزة وفى الخليل الأعلى شمال إسرائيل ، وفى مناطق التماس على حدود لبنان ؛ لأن سكانها اليهود يهجرون هذه المناطق بسبب عجز الحكومة عن ضمان أمنهم ، وتعمل إسرائيل على إعداد الفلاشا ليحلوا محل الإسرائيليين البيض

لتعمير هذه المناطق، كما يجرى تدريب بعضهم على أعمال المخابرات فى جهاز الموساد لممارسة أعمال التجسس والتغلغل فى إفريقيا بحكم اللون والثقافة والخبرة.

ولكن يهود الفلاشا يشعرون أن المجتمع الإسرائيلى يرفضهم، ويقولون إنهم يعيشون فى إسرائيل أخرى ليست أرض الميعاد التى تحدث عنها الآباء؛ وأن الصبية الإثيوبيين لا يفهمون الإنجليزية و ٥١٪ يدرسون فى مدارس لا تعلم الإنجليزية؛ لذلك فمن المستحيل أن يتأثروا بحركات السود فى الخارج التى تطالب بالمساواة وحق الحياة الكريمة. إنهم يتسلمون رهونات ويتسلمون منازل، ولكن هذه الرهونات ترسل بهم إلى أفقر الأحياء مثل مدينة «لود-Lod».

ويوجد الآن بينهم غضب وتزمر كثير والجرائم تزداد، والأسر الإثيوبية تفشت بينها الجريمة وأصبح لها سجل إجرامى ، ولكن السلطات الإسرائيلية تتكتم على ذلك.

**باختصار لقد صار وضع الفلاشا فى إسرائيل كوضع العبيد فى الماضى، مواطنون اسمًا، وفعلاً لا يحصلون على أدنى درجات المواطنة، يستغلون فقط فى الأعمال الوضيعة، وكدروع بشرية فى المناطق الخطرة مناطق التماس مع أصحاب البلاد الشرعيين.**

* * *

# «البرودر بوند»
# أخطر منظمة سرية فى جنوب إفريقيا

بعد زوال الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا كشف النقاب عن أخطر منظمة سرية فى العالم، وهى منظمة «البرودر بوند» التى أنشئت منذ ٩٠ عامًا، وظلت طوال هذه الفترة لا يُعرف عنها شىء سوى اسمها فقط، رغم نشاطها السياسى الإرهابى الخطير فى جنوب إفريقيا.

فقد أصدر سير «فونشتاين» أحد أعضاء «البرودر بوند» كتابًا صغيرًا كشف فيه جانبًا عن النشاط الداخلى لهذه المنظمة السرية التى تعتبر أقوى تنظيم عنصرى وواحدة من أقوى المنظمات الإرهابية فى العالم، وهى فى سريتها وانغلاقها تختلف عن المنظمات الماسونية وغيرها من التنظيمات شبه السرية، فهى لا تنشر أية كلمة عن نشاطها، ولا تعلن عن عنوان مقرها الرئيسى فى المبنى القائم بميدان أوكلاند بجوهانسبرج، ولا ترد أية كلمة عن آرائها ونشاطاتها فضلاً عن وجودها نفسه.

وعلى مدى ما يقرب من التسعين عامًا التى وجدت فيها منظمة «البرودر بوند» لم تصدر بيانات علنية باسمها إلا فى خمس أو ست من المناسبات، ولم يحدث ذلك إلا تحت الضغط وكرد فعل لبيانات نشرت فى الصحف الناطقة باللغة الإنجليزية فى داخل البلاد وخارجها.

وتشكل «البرودر بوند» من الذكور فقط، بل من جزء من المستوطنين البيض الذين يطلقون على أنفسهم «الصفوة المتميزة»، الذين يشكلون جهازًا يعتبر القوة الحقيقية خلف كواليس الحياة العامة فى جنوب إفريقيا. وأثناء حكم النظام العنصرى كان نفوذها يمتد على كافة المستويات فى قمة القيادة المركزية العليا إلى أصغر الهياكل المحلية.

والانضمام إليها لا يتم بتقديم طلبات، ولكن أعضاءها يجندون بعد سلسلة من عمليات الفحص الدقيق تتم على مدى يزيد عن العام، بغير أن يعرف المرشح للعضوية أن اسمه يوزع على كافة الخلايا فى البلاد، وتكفى أدنى الاعتراضات لإسقاط ترشيحه.

وعندما يُقبل العضو يُستدعى فى خلايا الاستقبال، حيث يقرأ الإنجيل والأناشيد الدينية، ثم يُؤخذ عليه القسم على أنه لن يخون المنظمة ولن يفشى أسرارها حتى ولو استقال منها أو طُرد. وبالطبع لا يجرؤ أحد أن يستقيل فإن الثمن الذى يدفعه من يعارض المنظمة هو الطرد الكامل من مجتمع الصفوة وفقدان الدخل والوظيفة والوضع الاجتماعى. وقد ارتكبت عددًا من جرائم القتل لأعضائها؛ بسبب ما سمى بـ «خيانة أسرار المنظمة».

أسست «البرودر بوند» فى يونيو عام ١٩١٨ م فى جوهانسبرج بجنوب إفريقيا بواسطة حفنة من شباب البيض، وفى بداية الثلاثينيات لعبت المنظمة دورًا حاسمًا فى تشكيل تاريخ العنصرية فى جنوب إفريقيا؛ ذلك أن مفتاح سياسة التفرقة العنصرية وكل ما يتعلق بشأنها ،يكمن فى فهم طبيعة منظمة «البرودر بوند» ودورها وفلسفتها ونشاطها وأجهزتها.

وهذا يفسر لماذا كان لا يمكن للمستوطنين البيض أن يغيروا طواعية خطهم السياسى أو يحيدوا عن سياسة التفرقة العنصرية، ولم َلم ينقسم الحزب الوطنى الحاكم على نفسه، وأكثر من ذلك لماذا تبدو كل المحاولات الاستراتيچية للدول الغربية الخاصة بالحوار الهادئ مع جنوب إفريقيا أو حتى التهديد بالمقاطعة أو تنفيذ المقاطعة فعلاً غير مجدية فى إرغام حكومة البيض على إلغاء سياستها العنصرية والسير بالبلاد نحو حكم الأغلبية الإفريقية، أو نحو أية صورة من صور المشاركة فى الحكم بين البيض والسكان الأصليين للبلاد.

تضم منظمة «البرودر بوند» نحو ١٢٠ ألف عضو موزعين على نحو ثمانية آلاف خلية، وهؤلاء يعتبرون أنفسهم الصفوة التى تضم الوزراء والبرلمانيين والقادة فى الكنيسة والتعليم والثقافة والمنظمات العمالية والبوليس وأجهزة الإدارة الحكومية ووسائل الإعلام والجامعات وفى المزارع.

ومن الصواب القول إنه باستثناء حالات قليلة جدّا فإن كل قيادى بارز ينتمى إلى هذه المنظمة خاصة هؤلاء الذين يشغلون المراكز الحساسة، ومن ثم فإن المنظمة كانت تربط القيادات العليا فى البرلمان مع الأعضاء غير المعروفين نسبيّا فى مجالس الكنائس واللجان المحلية بالمدن.

وتتكون كل خلية من ١٢ إلى ٢٠ عضواً يعقدون اجتماعات منتظمة فى ظروف مبالغ فى سريتها. وهناك تعليمات مشددة تلزم إطاعتها من حيث وجوب عدم إثارة الانتباه بالنسبة للمنزل الذى ينعقد فيه الاجتماع، ولا تنتظر السيارات أمام المنزل المعنى، ولا يركب ثلاثة أو أربعة فى نفس السيارة، ولا يناقش الأعضاء شئون الاجتماعات حتى مع زوجاتهم، كما أن ربة البيت غير مصرح لها بأن تدخل أثناء الاجتماعات.

وتتلقى كل خلية تعليمات منتظمة من المكتب القيادى فى جوهانسبرج، تتضمن توجيهات بالنسبة لما يجب اتخاذه فى كل مسألة من مسائل الحياة العامة كبيرة أو صغيرة.

وفضلاً عن الخلايا واللجان الإقليمية فهناك المؤتمر السنوى الذى يحضره مئات من ممثلى الخلايا والأقاليم، ويغطى جدول أعماله كافة المشاكل التى تواجه العنصريين. وإن ٢٠٪ من أعضاء المنظمة يوجدون فى مجال التعليم، وهذا يفسر كيف كانت تجرى عمليات «غسيل المخ» بين الشبان جيلاً وراء جيل، من أجل حقنهم بالأفكار العنصرية وفلسفات الاضطهاد العنصرى.

وتمارس المنظمة نشاطها فى الخارج من خلال منظمات أخرى، مثل اتحاد الجمعيات الثقافية للبيض الذى يعد واحداً من أهم منظماتها العلنية، وهو ينشط فى أكثر من ألفى جهاز ثقافى فى مختلف النشاطات فى العالم.

وعلى مدار ما يقرب من التسعين عامًا الماضية ما من مؤتمر كانت له نتائج سياسية مهمة، إلا وكانت منظمة «البرودر بوند» وراءه.

ووفقًا للوثائق السرية للبرودر بوند ولأحاديث قادتها فإن أهدافها كانت تتلخص فى **أولاً**: استبقاء البيض فى صورتهم النقية المعزولة بأى ثمن، **ثانيًا**: ضمان سيادة البيض فى حكم جنوب إفريقيا، وأن تكون «البرودر بوند» عمودها الفقرى، **ثالثًا**:

محاولة جذب المستوطنين البيض ذوى الأصول الإنجليزية، الذين ينظر إليهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية لتأييد النظام العنصرى المتعصب.

وتعتمد فلسفة «البرودر بوند» على مفهومين أساسيين : **أولهما** الإيمان الأعمى بأن الله يبارك سياساتها العنصرية، و**المفهوم الثانى** هو الأخوة التى تمثل العلاقة الخاصة بين الصفوة أعضاء المنظمة، وتعنى«الأخوة» فى التطبيق أن أعضاء المنظمة يتميزون بمعاملة مفضلة فى التعيين والوظائف العليا ،بل لا يشغل أى منصب مهم إلا أعضاء هذه المنظمة. وقد ظلت قيادات المنظمة هى المسيطرة والمحركة للسياسات العنصرية فى جنوب إفريقيا حتى عام ١٩٦٤م، حينما اضطرت المعارضة الرئيس السابق «فيرفورد» أن يجرى تحقيقات فيما يتعلق بالمنظمة أسفرت عن حملة تطهير واسعة داخلها وداخل الحزب الحاكم نفسه.

ومنذ ذلك التاريخ فقدت المنظمة استقلالها النسبى لتصير أحد أجهزة الحزب الحاكم العنصرى، واعتبرت الجهاز السرى الخاص به الذى يعمل فى الخفاء.

وفى عام ١٩٧٧م عندما أعلنت حكومة جنوب إفريقيا عن عزمها لاتباع سياسة أكثر مرونة بالنسبة للبيض والهنود الملونين، نشطت المنظمة للترويج لهذه السياسة، ولكن ظهر فيما بعد أن هذه السياسة كانت مجرد خديعة لكسب أصوات هؤلاء مع بقاء كل المراكز الحساسة فى أيدى أعضائها.

إن القسوة والوسائل التى كان يواجه بها كل من يتجاسر على نقد أو الاستقالة من المنظمة، تعيدان إلى الأذهان الأساليب النازية التى كان يتبعها «هتلر» مع معارضيه فى ألمانيا.

على أن هذا الإرهاب لم يخلق شعبًا متماسكًا، بل صنع جماعة مستعبدة مثقلة بأغلال الخوف وعدم الطمأنينة. وهذه العبودية والخوف الشديد على سيادة البيض جعل «البرودر بوند» تقود أعضاءها إلى الدمار الحتمى برفضها قبول الحقائق والمصالح المشروعة للأغلبية الإفريقية، التى كُتب لها النصر فى النهاية وملكت زمام السلطة وقيام حكم وطنى إفريقى.

# چورچ واشنطن وعبيده

فى سن الحادية عشرة كان «چورچ واشنطن»، زعيم حركة استقلال أمريكا، وحركة تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطانى، كان من ملاك العبيد، ورث أحد عشر عبداً وخمسمائة أكر من الأراضى طبقًا لوصية أبيه، وبعد إحدى عشرة سنة أخرى أى فى الثانية والعشرين من عمره كان مجموع ما يملك من العبيد يبلغ ٣٦ عبداً، ورث ١٢ منهم من عمه «لورانس واشنطن» طبقًا لوصية العم بعد أن كانت توفيت ابنته الطفلة وزوجته.

وعندما أعلن أول رئيس لأمريكا فى ١٧٨٩م لم يكن «چورچ واشنطن» فقط رجل القرن بسمعة عريضة من الشرف والتكامل، ولكنه كان أيضًا يحوز أكثر من ٣٠٠ عبد، وهؤلاء لم يحصلوا على حريتهم، إلا بعد وفاة زوجته طبقًا لوصية واشنطن نفسه.

إن هذه القصة لا يهتم بها أغلب الكتّاب خاصة فى الغرب، ولا يتعمقون فى معناها؛ لأنها تلقى بظلال سيئة على «أبو الحرية الأمريكية».

ولكن كل إنسان وخاصة الإفريقى يزور«ماونت فيرنون» لا يملك إلا أن يشعر بجو السادة والعبيد الذى يمثل حياة القرن الثامن عشر فى أراضى ماونت فيرنون، حيث كان يعيش «چورچ واشنطن» ويتعامل مع مواطنيه، وحيث يوجد مكتبه الخاص وحجرة نومه وسريره الذى مات عليه كل فى حالته كما كان فى حياته. يلاحظ الزائر أنه حتى فى الموت وبعد مئات السنوات التالية فإن «چورچ واشنطن» لا يزال هو سيد ماونت فيرنون وأن عبيده لا يزالون عبيداً، ففى أسفل تل على يمين المنزل يوجد قبر واشنطن وزوجته وأفراد أسرته الآخرين، وعلى بُعد أمتار قليلة من

حيث يرقد السيد يوجد ما يشار إليه أنه منطقة دفن العبيد، وهذا هو المكان الذى دفن فيه ٣٠٠ خادم، ولا يوجد شاهد على أى قبر ولا حتى بالنسبة لخدم واشنطن المقربين منه والحائزين على ثقته (إن عبداً واحداً فقط حصل على حريته بعد وفاته). . إن السيد هو السيد حتى لو كان ممثلاً للحرية والديموقراطية.

وهذا لا يدعو إلى الدهشة؛ لأن واشنطن لم يخطر بباله أن يتحدث عن العبيد أو عن عبيده، وكانت كلماته غامضة فى هذا الشأن، حتى عندما كتب قوائم عبيده كان وصفه لهم مثلاً: أنه قاطع جيد وشيّال ويمكن أن يقوم بأى عمل رغم شكله المعيب من طفولته، وقال عن جارية أخرى: إنها امرأة جيدة فى العمل رغم بشاعة مظهرها.

وقد تجاهل المعارضة التى كانت تنادى بالحرية للجميع، وكانت هذه المعارضة تواجه واشنطن فى حياته الخاصة والعامة، ولكنه لم يكن يعيرها أدنى اهتمام ولا يستجيب إليها. فى يوليو ١٧٩٦م فإن أحد المعادين للرق وهو «إدوار راشتون» من ليفرپول فى انجلترا كتب يدين «چورچ واشنطن» وخاطبه قائلا: «إنه بالشعلة التى أشعلتها فإن كل أمة مضطهدة ستكون قادرة على استشراف وضعها. . ولكن ذلك لا يكون بالنسبة لقائد القوات الأمريكية ولا بالنسبة لرئيس الولايات المتحدة الذى أخاطبه الآن، إننى أخاطبك الآن ومشكلتى هى مع چورچ واشنطن صاحب الضياع فى ماونت فيرنون فى فرچينيا، الرجل الذى بالرغم من كراهيته للاضطهاد وشوقه المشبوب للحرية، يمتلك فى هذه اللحظة مئات من الآدميين يرسفون فى أغلال الرق. . نعم أنت الذى انتصرت تحت رايات الحرية، وأنت الوكيل الأول للشعب الحر تحوز العبيد. . يا للخجل يا للخجل. . إنه من المشين أن الرجل الذى كان من المدافعين عن حقوق أمريكا والذى قاد تحريرها من نير الاضطهاد البريطانى، يمتلك هؤلاء الزنوج الفقراء البائسين».

وبالرغم من أن «چورچ واشنطن» كان لا يهتم بالمعارضة حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كان ضعيف الحساسية للنقد، فقد استثاره هذا القول وغضب بشدة من راشتون إلى حد أنه مزق الخطاب. ولكن راشتون تكلم بعد ذلك عن فقدان واشنطن للشجاعة السياسية التى تجعله يتعامل مع موضوع الرقيق أو يتكلم عنهم أو

يأخذ موقفًا ضد الرق. وعلق «چون آدمز» نائب واشنطن والذى صار الرئيس الثانى للولايات المتحدة بعده قائلاً عن رئيسه السابق: لقد كانت لديه موهبة الصمت. وفى مرة من المرات القليلة جدّا التى أشار فيها إلى الرق كتب واشنطن فى عام ١٧٨٦م يقول: «إننى لن أشرع فى حيازة امتلاك عبيد مرة أخرى بالشراء، إلا إذا أجبرتنى على ذلك ظروف خاصة».

إن «دورثى دوهج» التى كتبت عن واشنطن أشارت إلى أنه لم يحدث أن تكلم علنًا، وأبدى امتعاضه لنظام الرق ولا حدث أن عبّر عن ذلك بشكل واضح، وقالت: إنه كان يتمتع بالقدرة على ألا يعتذر ولا يشرح ولا يبرر ما يقوله، وأكدت أن السبب الرئيسى لدى واشنطن لامتلاك العبيد هو الضرورة الاقتصادية، وبغير العبيد لم يكن من الممكن أن توجد حياة اقتصادية ناجحة فى ماونت فيرنون.

إن قوائم جرد العبيد التى أعدها وكتبها شخصيّا «چورچ واشنطن» تشير إلى أن عدد العبيد العاملين فى«ماونت فيرنون» فى الأوقات المختلفة كالآتى:

فى ١٧٥٩م كان يمتلك ٢٤ عبدًا.

وفى ١٧٨٦م كان يمتلك أكثر قليلاً من مائة عبد بالميراث.

وفى ١٧٩٩م كان لديه ١٦٤ عبدًا و ١٥٣ بالميراث (العبيد الموروثون كانوا ملكًا لزوجته مارتر، وكانت ورثتهم من زوجها الأول السابق دانيال بارك كاستس).

وفى فرچينيا حيث كان يقيم واشنطن كان الرقيق ملكية شخصية، وهذه المستعمرة كانت تستبقى العبيد والأرض الموروثة معًا. وكانت تعرّف العبيد أنهم ملكية حقيقية مثل الأرض، ومن ثم فإن الأرملة أو الأرمل لا يستطيع أن يبيع العبيد بإرادته، وعند وفاة الشخص فإن العبيد يئولون مع الأرض إلى ورثة المالك.

إن واشنطن لم يكن فقط يحتاج إلى العبيد ليعملوا فى مزرعته، ولكنه كان أيضًا متنبهًا إلى أن العهد الذهبى للتوسع الاقتصادى والاجتماعى فى وقته كان يعتمد على تجارة العبيد، كانت مصالحه الاقتصادية تؤدى إلى التمسك بنظام العبيد بما يعلو على مبادئه الأخلاقية.

وفى الحقيقة فإن البحث عن ظروف العبيد فى«ماونت فيرنون» يكشف عن عدم

صداقية كبيرة بين ما يقوله واشنطن وما يحدث بالفعل، على سبيل المثال فى ١٧٧٥م قَبلَ واشنطن فى تسوية دَيْن عبداً فى ميريلاند كان يقاوم لكى لا ينفصل عن عائلته، وكتب إلى مديره عن امتعاضه لسلوك هذا العبد قائلاً إنى لا أتصور أن تغيير السادة والملاك يزيد مضايقات بالنسبة للعبيد، بافتراض أن الزوج أو الزوجة أو الأبناء والأولاد لا ينفصلون بعضهم عن بعض، وفى حالة أخرى كتب إلى مدير آخر من مديريه يعبر عن رغبته فى استبدال عبيد بالأرض.

وفى ١٧٧٢م كان واشنطن عضواً فى مجلس البورجيز الذى وضع مظلمة لملك انجلترا تتعرض لاستيراد العبيد للمستعمرات من الشاطئ الإفريقى، وصفها بأنها تجارة غير إنسانية تهدد حقيقة الدومينيوم الملكى فى أمريكا، وبعد ذلك بعامين ساهم واشنطن فى مشروع مقتضاه ألا يُستورد عبيد بعد ذلك فى المستعمرات البريطانية، وذكر فى هذه القرارات «أن أكبر رغبة لنا هى أن نرى نهاية تامة وأبدية لهذه التجارة القاسية غير الطبيعية والشريرة».

ولكن رغم كل ذلك كان السلوك العملى لواشنطن مختلفًا لما يبديه، ولا يبين أن قيمه الأخلاقية اهتمت بموضوع العبيد أو أن ذلك ضايقه، وبدلاً من ذلك فقد زاد قوة عمل العبيد فى أراضيه مع تقدم السنين.

ومما يدعو للسخرية أيضًا أن واشنطن كان يعارض بشدة تجنيد السود فى الجيش خلال الثورة الأمريكية، وتشير الوثائق التاريخية أن اعتراضه على استخدام الجنود السود هو الخوف من أن العبيد حاملى السلاح يمكن أن يستثاروا ويثيروا القلاقل فى دوائرهم الخاصة وضد أسيادهم.

وفى نهاية الحرب كتبت «دوهج» أن واشنطن قام بجهود لإعادة العبيد الهاربين من ملاكهم، وأقام محاكم للتحقيق فى دعاوى هؤلاء السادة، وفى ١٧٨٣م اعترض على خطط إنجليزية تتعلق بأخذ الإنجليز العبيد الذين كانوا يخدمونهم فى الجيش أخذهم معهم عند عودتهم، ذاكرًا أن نصوص معاهدة السلام تمنع خروج العبيد. وفى ذات الوقت اتصل واشنطن بإحدى الوكالات التى كانت تقوم بإعادة البريطانيين عبر البحار، وادّعى أن بعض العبيد المملوكين له وبعض من كانوا يتولون إدارة شئونه الخاصة أيام الحرب قد هربوا، وطلب من الوكالة أن تساعده فى إعادة من تركوا ماونت فيرنون.

وخلال المؤتمر الدستورى فى فيلادلفيا ، الذى رأسه واشنطن، كان واشنطن متنبهًا تمامًا لما قد يسببه موضوع العبودية من تعقيدات، ولكن مناقشات المندوبين التى جرت فيه كانت أكثر اهتمامًا بمعرفة نجاح الحكومة الجديدة، فلم يكونوا مهتمين بوضع موضوع العبودية فى جدول الأعمال حتى لا يحرجوا الجمهورية الناشئة ، وعلى ذلك فمن مناقشاتهم كتبت «دوهج» تقول إن المندوبين كانوا حريصين حرصًا شديدًا لكى لا يستخدموا حتى لفظ «العبودية»، فاستخدموا لفظ «المهاجرين» بدلاً من لفظ «الرقيق»، واستخدموا لفظ «الأشخاص» فى الخدمة بدلاً من لفظ «العبيد».

إن واشنطن مثل غيره من جيل ما بعد الثورة بقى يلوم بريطانيا على تعليقها موضوع الرق فى رقبة المستوطنين، ومن ثم فإن مشاعر معاداة الرق أتت ضعيفة جدّا عندما تناقضت مع المصالح الاقتصادية القوية للقوى الموالية والمستفيدة من الرق. وتشرح «دوهج» ذلك بقولها: إنه بالنسبة لواشنطن، وكذلك بالنسبة لكثير من الأمريكيين حتى بعض هؤلاء الذين كان رأيهم فى الرق أكثر راديكالية بكثير منه، فإن الموضوع كان حساسًا جدّا إلى درجة أنه لم يتعرض له أحد بما يستحق. إنه بالنسبة لواشنطن وغيره من المؤسسين الآخرين فإن مصير الجمهورية الجديدة وضع فى الميزان فى مواجهة المعارضة ضد الرق. وكان هناك شعور عام أن الجمهورية سوف تذوى إذا فقدت عمل الرقيق، ومن ثم لم يحدث أى تعليق عام من واشنطن عن الرق.

حتى خلال رئاسته فإن موقف واشنطن من الرق لم يكن واضحًا، وطبقًا للوثائق الموجودة فى مكتبة الكونجرس أنه فى أبريل ١٧٩١م وخوفًا من تأثير قانون صادر فى پنسلڤانيا لتحرير الرقيق فإن واشنطن أعطى تعليماته لسكرتيره؛ ليتأكد من تأثير القانون على فئات العبيد الذين خدموا فى مقر الرئاسة فى فيلادلفيا، وفى حالة ما أيقن السكرتير أنّ أيّا من العبيد ينشد حريته طبقًا لقانون فيلادلفيا فإن واشنطن ذكر أنهم يجب أن يُرسلوا إلى «ماونت فيرنون». وعندما هرب أحد عبيده ١٧٩٥م أصدر واشنطن أوامره بمتابعته، ولكنه طلب ألا يظهر اسمه فى أى إعلان عن ذلك أو فى أى إجراء يُتخذ.. يالها من حرية وعدالة!!

وإذا كان واشنطن بقيت لديه شكوك متعلقة برد الفعل فى الولايات المتحدة على

الرمز الخاص بمسألة التحرير، فإن رد الفعل العام تجاه ثورة العبيد فى المستعمرات الفرنسية «سان دومنجو» (هاييتى الآن) فى ١٧٩١ م ، يمكن أن يساعد فى تأكيد تصميمه على تجنب إثارة الموضوع بأى ثمن.

كتبت «دوهج» أن فظائع ثورة العبيد فى «سان دومنجو» ضد سادتهم الفرنسيين كانت ظاهرة بشكل مباشر، رغم أنها كانت أقل فهمًا فى الولايات المتحدة ، كانت تظهر فى الصحافة الأمريكية تقارير يومية عن الثورة. هذه الثورة صدمت الأمريكيين فى جانبين أنها لعبت على قناعاتهم بشأن الملكية التى تعتبر لدى الأمريكيين واحدة من أسس الحقوق الطبيعية التى قاتلوا من أجلها البريطانيين العديد من السنوات، كما أنها أثارت خوفًا مجنونًا بالنسبة للفتن فى جنوب إفريقيا.

لقد رد واشنطن كتابه إلى «جان بارتست» الوزير الفرنسى، ووعده بالمال والسلاح الذى تطلبه الحكومة الفرنسية لقمع الثورة، وقال: «إنى سعيد أن تأتى هذه الفرصة التى تكشف عن رغبة الولايات المتحدة الأكيدة لتقديم كل معاونة فى طاقتها لأصدقائها وحلفائها الفرنسيين؛ وذلك لقمع الفتنة المنذرة التى يقوم بها الزنوج فى هسبانولا».

وفى هذا الوقت كانت تعليقات واشنطن عن العبودية تعبر عن رغبته فى أن يراها قد اختفت، وهذا يثير تناقضات كثيرة. إن عدم موافقته على العبودية من الناحية الأخلاقية يقوم معها اعتبار العبودية ضرورة للنمو الاقتصادى، ولا يوجد مؤشر فى مراسلاته يثبت أنه كان يدافع عن أو يتبنى سياسة الإلغاء الفورى لها.

إن ملكيته للعبيد وفشله فى أن يتحدث علنًا ضد العبودية لايزالان أمرين من الصعب تصورهما، وإن الحجة المقبولة للعفو والنسيان لهذا الأمر هى أن واشنطن ولد وعاش فى فترة كانت العبودية فيها مقبولة ، ولكن هذه الحجة لا تقوم بشكل جدى، إنها تثير سؤالاً كانت مقبولة ممن ومن أجل ماذا؟

لقد مات چورچ واشنطن الرمز الأمريكى المحبوب للحرية، وهو يعلم حتى آخر يوم فى حياته أن العبودية كانت خطأ، ولكنه لم يفعل أى شىء فى مواجهة هذا الخطأ، رغم أنه كانت لديه القوة أن يفعل ما يصححه.

## التشكيك فى «الجذور» أشهر الأعمال الأدبية عن الرق

فى عـام ١٩٧٦ م أصـدر الكاتب الأمـريكى الإفـريقى «ألكس هيلى» كـتـابه «الجذور»، ونال عنه جائزة بوليتزر العالمية، وكان الكتاب يحمل عنوانًا آخر هو «الرق فى البداية»، تتبع فيه مؤلفه أسلافه من خلال ستة أجيال إلى من يدعى«كونتا كنتى»الذى سُرق من قريته فى چامبيا ، وهو فى سن السادسة عشرة، ورُبط بالسلاسل وأخذ إلى أمريكا وفُرضت عليه العبودية.

وفى العام التالى لصدور الكتاب ١٩٧٧م حوّل التليفزيون البريطانى B.B.C الكتاب إلى مسلسل عرض باسم «الجذور»، قُدّر عدد مشاهديه فى أمريكا وحدها بنحو ١٣٠ مليون مشاهد، ثم نقلته أغلب تليفزيونات العالم، وأعاد التليفزيون المصرى إذاعته مرتين.

اعتبر «الجذور» واحداً من أهم الأعمال الأدبية ذات الدلالة، وأول عمل أدبى فى التاريخ يصف تجارة الرقيق عبر الأطلنطى، كتب عنه مؤلفه فى مقدمة كتابه: «إن ما أردت كتابته هو قصة أسرتى ولكنها نموذج للآخرين، فإن كل إفريقى فى أمريكا عليه أن يبحث عن أصله الأسود؛ ليعرف سلفه الذى ولد فى إفريقيا، ومن أى قرية جاء جده العبد الذى اختُطف من هناك وشُحن فى السفن إلى أمريكا ليعمل بالزراعة وتسحق آدميته».

كان الصبى «ألكس هيلى» يسمع من جدته قصصًا عن رجل قديم اسمه الإفريقى «كونتا كنتى» الذى اختُطف عندما كان يبحث فى الغابة المحيطة بقريته «چوفيور» عن جذع شجرة ملائم ليصنع منه طبلة، وهناك انقض عليه أربعة رجال وضربوه وأوثقوه بالحبال وحملوه إلى حيث ألقوا به فى سفينة تحمل الرقيق. عبرت السفينة

بحرًا هائجًا أيامًا وأسابيع حتى ألقت به وبغيره من الصبيان والشباب المخطوفين إلى هذه الأرض الجديدة. ظلت قصة الجدة عالقة بذاكرة «ألكس هيلى» راسخة فيها، فلما شب انضم إلى الزعيم الزنجى المسلم الثائر «مالكولم إكس» وآمن بمبادئه ودعوته لتحرير الجنس الأسود، وصدم صدمة كبيرة عندما اغتيل مالكولم، اعتكف هيلى وانزوى وكرّس حياته وجهده للبحث عن جذور الجنس الأسود، فراح يبحث ويقرأ ويسافر إلى إفريقيا ويجوس خلال أدغالها، ثم يعود إلى أمريكا ليكتب القصة التى استغرقت منه اثنتى عشرة سنة.

بدأ هيلى رحلته بالبحث والتنقيب فى الوثائق القديمة فى المتحف الوطنى فى واشنطن وفى مكتبة الكونجرس، وذهب إلى لندن حيث تحتفظ الحكومة فى مكتب السجلات العامة بوثائق عن السفن البريطانية التى كانت تحمل الرقيق، حتى اهتدى إلى السفينة التى حملت ذلك الصبى الذى يقال إنه جده كونتا كنتى، ثم ذهب إلى چامبيا وقابل أهلها واستمع إلى شهادات حية من بعض كبارها ممن بقى من كبار قبيلته المسلمة التى فقدت ابنها منذ مائتى سنة.

يروى كتاب «الجذور» مولد الجد كونتا كنتى فى قرية «جوفيور» فى چامبيا إلى أن مات فى« تنيس» بأمريكا، يرويها فى مئات الصفحات تصل إلى سبعمائة صفحة، وهى جولات شائقة فى تاريخ إفريقيا، ولمحات سريعة عن العرب والإسلام، وصور بشعة عن الاستعمار الأوروپى، إلى جانب قصة طويلة مؤثرة عن العبودية فى أمريكا التى مرت عبر التاريخ بكل المآسى وكل الآلام.

ولعل من الصعب بل من الاستحالة تلخيص القصة، أو وصف الظلم الذى عاناه الرقيق المخطوفون وطريقة صيدهم من قراهم ورحلة عذابهم الرهيب فى السفن التى تحملهم إلى الأرض الجديدة، كان يموت أثناءها الكثير من سوء التغذية والتهوية وقسوة المعاملة. وبإيجاز شديد لا يغنى عن القراءة، بل لعله يحث على قراءة القصة، تبدأ «الجذور» عندما ذهب الصبى كونتا ذات يوم إلى غابة قريبة من قريته «جوفيور» ليقطع جذر شجرة لاستخدامه فى صنع طبلة، وتربص به أربعة رجال اثنان من السود واثنان من البيض، وهبطت هراوة ثقيلة فوق رأسه فأفقدته الوعى، وعندما أفاق من إغمائه وجد نفسه معصوب العينين مكممًا مكبلاً

ومعصميه مربوطين وراءه ورسغيه معقودين بحبل، وعندما حاول فك قيوده انهالت عليه السياط بوحشية إلى أن جرت الدماء على ساقيه ونخس بالعصا ليواصل السير، فأسرع فى مشيته، حتى وصل إلى ضفاف نهر، وزج به فى قارب صغير سار به مدة، وألقوا به إلى أرض، وربطوه فى سور ثم نزعوا العصابة عن عينيه فوجد الظلام مخيمًا وترك بقية الليل، وعند الفجر بدأ يتبين فى وضوح أشكال الأسرى الآخرين من حوله من شبان وفتيات. وفى غضب جنونى حاول تحطيم قيوده فهبطت عليه عصا غليظة أفقدته الوعى مرة أخرى، وعندما أفاق اكتشف أنه قد أصبح عاريًا تمامًا، وأنه مكبل بالأغلال فى مبنى يسمى قلعة جيمس، ووجد معه عددًا كبيرًا من الفتية والفتيات رءوسهم جميعًا قد حُلقت وأجسادهم دُهنت بزيت النخيل الأحمر، ويتعالى صراخهم وهم يُحرقون بأسياخ الحديد التى ترسم على ظهورهم علامة L.L التى ترمز إلى اسم السفينة التى ستحملهم إلى الشاطئ البعيد، أرغم كونتا على الجلوس مع تقويس ظهره ورسمت عليه علامة السفينة، فجر الحديد المحمى آلامًا مروعة بين كتفيه جعلته يقفز ويندفع وسط صرخات الموجودين. حاول إلقاء نفسه فى الماء إلا أنه كان مربوطًا مع الآخرين وانهالت عليه السياط، وأحس بنفسه وهو ينتزع لأعلى ويلقى به بشدة على مكان مسطح، ثم اقتيد ونزل سلالم ضيقة إلى أن وصل إلى مكان حالك الظلام، وفجأة أحس كونتا أن ذلك المكان يتحرك.

كانت السفينة تحمل ١٤٠ عبدًا من الشباب والصبية والفتيات. وبعد عدة أيام فتح العنبر ودفع بهم إلى سطح السفينة فسقطوا فى حالة انهيار وتقيؤ. وبينما كان يتم ربط أقدامهم فى سلسلة واحدة لم تتحمل إحدى الفتيات قسوة السياط فألقت بنفسها فى مياه البحر، وشوهدت وهى تتمايل مع الأمواج، وعلى مسافة غير بعيدة ظهرت زعانف سمكتين تلاحقانها بسرعة، ثم صدرت صرخة من الفتاة تلتها رغاوى وزبد وتلاشت تاركة وراءها لونًا أحمر فى المكان الذى كانت فيه.

بعد مرور أربعة أشهر و نصف منذ غادرت السفينة إفريقيا، شعر كونتا بارتطام السفينة بشىء صلب فتوقفت ساكنة، واقتيد الرجال المكبلون للخروج من السفينة ووطأت أقدامهم أرضًا غريبة، وساروا فى طابور بالقرب من أناس بيض ساخرين، ووجدوا أنفسهم أمام مبنى كبير من الطوب اللبن دخلوه، ثم سيقوا إلى غرف عليها

قضبان حديدية، وقام الحراس الذين يسمون «التوبوب» بتكبيل كونتا ورفاقه بأساور حديدية متصلة بسلاسل قصيرة مربوطة فى الجدران.

نظر كونتا فيما حوله نحو زملائه الذين جاءوا معه فى السفينة الكبيرة فلاحظ أنهم جميعا لا يرون ولا يسمعون وأنهم منسحبون إلى داخل أنفسهم. وفى صباح اليوم التالى دخل اثنان من «التوبوب» ومعهم أكياس من الملابس وراحا يفكان قيود العبيد المكبلين ويوضحان لهم كيفية ارتداء الملابس، وبعد وقت قصير اقتيد كونتا وكان فى مقدمة الطابور إلى حلقة مزاد وصعد على منصة مرتفعة، وأخذ «التوبوب» ينادى بصوت جهور هذا شاب فى أوج نشاطه صغير السن رشيق الحركة، كان كونتا فى هذه الأثناء مخدراً بسبب الرعب، حتى إنه لم يلحظ جمهور المشترين وهم يقتربون منه ويفحصون أسنانه وظهره وإبطيه وصدره، ثم بدأ المزاد بثلاثمائة دولار وانتهى بثمانمائة وخمسين دولاراً (ثمنًا لم يُسمع به من قبل!) ودفع به إلى عربة، وبينما كانت تسير قفز كونتا منها مختبئًا بين أحراش الغابة، ولكن سرعان ما هجم عليه كلبان وهوت ضربة ثقيلة على رأسه غيبته عن الوعى، أفاق على ركلة فى ضلوعه وحبل يلتف على جسده وكتفيه يحز فى بشرته الدامية، وهو ممتد على ظهره وباسط ذراعيه وقدميه فى أحد الأكواخ ومقيد رسغيه ومعصميه بالسلاسل.

كان هذا المكان مزرعة مستر «چون وولد» الذى رسا عليه المزاد، وهو مزارع ثرى فى ولاية فرچينيا، غيّر اسم كونتا وأطلق عليه اسم توبى، وهناك بدأ كونتا أو توبى مرحلة جديدة من حياته فى بلاد عرف فيما بعد أن اسمها أمريكا.

صمم كونتا منذ البداية على الهرب من مزرعة «چون وولد»، حاول ثلاث مرات، وفى كل مرة كانت كلاب السيد تقتفى أثره وتنهشه، وسرعان ما تلاحقه كرابيج حراس السيد ويقبضون عليه ويعيدونه إلى سيده، بعد أن يتشقق جلده من السياط. وفى المرة الأخيرة جاء رجلان من البيض وأوثقاه فى جزع شجرة وهوى أحدهم بفأس حاد السلاح على قدمه اليمنى فبتر نصفها الأمامى؛ كى لا يستطيع الجرى أو الهروب.

رأى سيده أن كونتا لم يعد يصلح للعمل فى مزرعته فباعه لأخيه الدكتور «وليم وولد»

ليعمل فى منزله أو عيادته، وهناك وجد كونتا الخادمة «بيل» التى أخذت تغسل له قدمه المبتورة وتضع اللفائف عليها وتدربه على المشى على عكازين.. وتمضى الحياة بكونتا عاجزاً، ويتزوج من «بيل» وتلد له ابنته الوحيدة «كيزى» التى تنتزع منه وتباع إلى أحد تجار الرقيق، ولم يرها «كونتا كنتى» منذ ذلك اليوم. يشترى «كيزى» مزارع فى ولاية بعيدة ويغتصبها وتنجب ولداً، الذى ينجب عدداً من الأولاد والبنات تكون إحداهن الجدة التى كان «ألكس هيلى» يجلس على حجرها وهى تحكى له قصة جدها الإفريقى الذى اسمه «كونتا كنتى».

* * *

عندما صدر كتاب «الجذور» احتفى به احتفاءً كبيراً، واعتبر أكثر الكتب التى نالت رواجًا، وصنف المسلسل على أنه واحد من أشهر وأهم المسلسلات العالمية. ولكن بعد وفاة مؤلفه «هيلى» بدأ النقاد البيض يشككون فى صدق القصة، وكان أكثرهم عنفًا وقسوة الصحفى الشهير «فيليب نوبل» الذى وصف «الجذور» بأنها أكثر أعمال الخداع الأدبى نجاحًا فى العصر الحديث، واتهم «هيلى» بأنه اخترع ٢٠٠ سنة لتاريخ أسرته، وأن «هيلى» مخادع فهو عندما قرر أن يبحث عن جذوره لم يكن لديه فكرة إطلاقًا عن أى جزء من إفريقيا الغربية كان يسكن فيه أسلافه، وأنه اختار بإرادته چامبيا لتكون موطن أجداده قبل أن يخوض رحلة البحث عن أصوله العائلية، وهى مرحلة استمرت ١٢ سنة، وأن «هيلى» اعترف قبل وفاته بالأزمة القلبية عام ١٩٩٢م بأنه اختلق بعض الحكايات ليحبك قصته، وأنه فى عام ١٩٧٨م دفع مبلغ ٦٥٠ ألف دولار لإجراء تسوية خارج المحكمة مع المؤلف «هارولد كورلاندر» الذى ادّعى أن هيلى استولى على ٨٠ صفحة من روايته التى نشرها عام ١٩٦٧م بعنوان «الإفريقى».

كذلك شكك عالما السلالات «جيرى» و«إليزابيث فيلز» فى جذور «هيلى» ووصفاه بأنه هاو فى علم السلالات، وهاجماه على اعتماده على التاريخ الشفهى الذى انتقل إليه عبر أسرته وعبر المؤرخين الشفهيين ممن قابلهم فى چامبيا، وعلى سبيل المثال فقد وجدا فى دراسة الأرشيفات أن توبى الاسم العبودى الذى أطلق على كونتا كنتى قد توفى قبل ثمانى سنوات من مولد ابنته كيزى عام ١٧٩٠م.

ويبدو أن هيلى كان يتوقع هذا النقد، فذكر فى الفصل الأخير من كتابه «فى حدود معلوماتى فإن كل علاقة داخل الجذور هى من أسرتى الإفريقية أو الأمريكية ومما حفظوه من تاريخ شفهى، وهو ما استطعت أن أوفق بينه وبين الوثائق».

ولكن لماذا كل هذه الانتقادات والتشكيك فى قصة الجذور؟ يبدو أن الهدف الخفى هو محاولة التخفيف من أثر العبودية على الإفريقيين، فلأول مرة فى التاريخ الحديث يصور عمل أدبى بهذا الحجم والنجاح والصدق بشاعة تجارة الرق عبر الأطلنطى. وقد أشار إلى ذلك القائمون على جائزة بوليتزر عندما منحوا «ألكس هيلى» الجائزة، فجاء فى تقييمهم للعمل «أن قصة الجذور من أهم الأعمال الأدبية ذات الدلالة التى كشفت عن الدور المدمر لتجارة الرق عبر الأطلنطى، وهى واحدة من أكبر الجرائم ضد البشرية».

وفى خضم هذا الجدل حول الجذور ارتفع صوت شريف يدحض الادعاءات التى أثيرت حولها، جاء الصوت من الكاتب الأمريكى الأسود «باسكو ساويرس» الذى سافر إلى چامبيا ضمن وفد من الوفود السياحية التى تذهب تباعًا إلى چامبيا؛ لتشاهد على الطبيعة أرض الأسلاف، فمنذ نشرت قصة الجذور أصبحت چامبيا مزارًا سياحيًا تجذب أعدادًا غفيرة من زنوج أمريكا وغيرهم من كافة أنحاء العالم الذين يأتون إليها؛ ليشاهدوا وطن كونتا كنتى الجد السادس للمؤلف «ألكس هيلى».

تجول الكاتب «باسكو ساويرس» فى چامبيا وسجل انطباعاته كشاهد عيان لما أحدثته القصة على زنوج أمريكا، وعلى أهل چامبيا أنفسهم.

كتب يقول: قبل الجذور كنت أنظر إلى الإفريقيين باعتبارهم مخلوقات أقل، وعندما عرفت أنى واحد منهم، وعرفت كيف صرت مولودًا هنا فى أمريكا وليس فى إفريقيا كان ذلك من أكثر الخبرات ألمًا فى حياتى، هل حدث هذا فعلاً، ولماذا لم يحك أبوانا عنه، وهل يعرف ذلك أصدقائى البيض؟

إن «الجذور» كان لها أثر شديد علىّ وعلى زملائى البيض فى المدرسة، كانوا يشعرون بالإهانة وبالحيرة عندما يرون لأول مرة ما فعله أسلافهم ضدنا. إن

الكتاب أنجز مهمته ووضع حدوداً ومفاهيم جديدة بين السود والبيض، وجعل كل أسود عليه أن يسعى لمعرفة جذور أجداده.

إن چامبيا واحدة من أصغر دول إفريقيا ، وهى تتكون من شريط ضيق من الأرض وسط ساحل غرب إفريقيا، وسكانها لا يزيدون كثيراً عن مليون نسمة، وتتكون من ثمانية أقاليم يسكنها جماعات عرقية متجانسة، وهى مثل أغلب أجزاء القارة الإفريقية سكانها فقراء والبنية الأساسية فيها متخلفة، ولكن لديها صناعة سياحية متطورة وسمعة لا تنكر فى هذا المجال.

كنا ونحن نتجه إلى چامبيا يملأ خيالنا قصة كونتا كنتى وكيزى وشكن چورچ أبطال القصة، لم نر أنفسنا كسائحين يذهبون عبر الجو أو عبر البحر من السواحل البيضاء، بل كنا نشعر بأننا مثل الأولاد والبنات اليتامى الذين يعودون إلى أرضهم الأم التى افتقدوها، يحدو بعضنا الأمل أن يجد بعض الحقائق التى تتعلق بروابطه الإفريقية.

ولكن لسوء الحظ لم يكن لدينا أى نوع من المعرفة الأساسية التى شجعت «ألكس هيلى» ليعود إلى شجرة عائلته، كانت تقوده قصص سمعها وهو صبى عندما كان يمضى أمسيات الصيف فى منزل عائلته فى أعماق الجنوب الأمريكى يستمع إلى جدته وعماته المسنات يتحدثن عن تراثهن الأسرى، كن يتكلمن عن الجد العجوز كونتا كنتى ومحاولاته العديدة الفاشلة للهرب حتى قطع سيده قدمه ليوقف محاولاته للهرب، ولكن داوم على القتال من أجل الحرية الروحية والذهنية، وسعى لنقل لغته الأصلية وثقافته لطفلته كيزى، ونقلت كيزى هذه المعلومات لطفلها شكن چورچ الجد الأول لكونتا.

يقول «باسكو ساويرس»: إن هيلى وجد فى أحاديث المسنات من عائلته إشارات كثيرة قادته إلى الاتجاه الصحيح عندما قرر أن يبحث عن جذوره، حقيقة أنه لم يكن لديه فكرة عن أى أجزاء من غرب إفريقيا كان يسكن فيه أسلافه، ولكنه قدر إذا كانت لديه فرصة الاختيار فتكون چامبيا أكثر المناطق التى كان يتجمع فيها العبيد المخطوفون.

ويكمل وصف رحلته قائلاً: كانت أكثر المشاهد فى جولتنا إثارة فى چامبيا

جزيرة جيمس، المكان الذى فقد فيه كونتا كنتى رباطه مع الأرض الإفريقية، وهذه الجزيرة لها دلالة رمزية خطيرة، إنها قريبة من نهر چامبيا ويمكن الوصول إليها بزورق صغير، وكانت مركزًا لتجار الرقيق الذين أحكموا قبضتهم عليها ، فلم يكن يستطيع أن يهرب منها أى مخطوف ليعود إلى أرضه إلا القوى القادر على السباحة الشاقة.

أما قلعة الجزيرة التى كان تجار الرقيق يحبسون فيها المخطوفين الأكثر تمردًا، كان الوصول إليها عبر مكان ضيق جدّا، وهى من الداخل لا تزيد عن أربعة أقدام مربعة، ورغم سخونة الشمس شعرت بالبرد فيها، ويكمل قائلا: ثم ركبنا الزورق عائدين عبر النهر إلى جوفيور وهى القرية الصغيرة التى أخذ منها كونتا كنتى، وبسبب أننا كنا ضيوف الحكومة فقد تجمع الناس حولنا للترحيب بنا. وذكرنى ذلك بوصف هيلى لزيارته الأولى للقرية بأنه قابل أصحاب أسود بشرة رآها فى حياته، وقد التفوا حوله يرددون بصوت منغم ما اعتبره اسمه القديم مستر كونتا كنتى. هذا المشهد أسال الدمع من عينى هيلى، ولكن بعد عشرين عامًا فإن الترحيب الشعبى أشعرنا بعدم الارتياح لنا، لقد ذهب هيلى يبحث عن جذوره وعن هويته الإفريقية، ولكنه بذهابه هذا ترك ما غيّر شعب هذه القرية.

كان أكثر شىء يجذب انتباه الزائر فى قرية جوفيور هو مقابلة «بنتا كنتى» وهى امرأة فى الثمانين من عمرها تعد أعجز من يعيشون من سلالة كونتا كنتى، جلست صامتة متدثرة بشال يصدر منها أحيانا إشارات خفيفة، ويظهر على وجهها أحيانا علامات عدم الارتياح. ومثل كثيرين فى چامبيا فإن «بنتا كنتى» تعيش على السياحة، وكانت تبدو سعيدة حين يُلتقط لها الصور مع أفراد مجموعتنا دون أن تبادل أيّا منا كلمة واحدة. وقد أرجع البعض ذلك إلى أنها لا تعرف الإنجليزية، ولكنى لم أقتنع بهذا السبب، فلعله لم يكن مريحًا لهذه السيدة المحترمة الكبيرة السن أن تتحول إلى مجرد شىء سياحى توزع ابتساماتها وتحياتها على السياح.

إن هيلى فى حكايته «جذور» صوّر إفريقيا فى صورة مثالية: الخضرة الممتدة والأشجار الفارهة والتنظيم الاجتماعى المحكم والناس يعيشون فى تناغم، مسترشدين بالتقاليد والقيم والقوانين القبلية. لقد ركزت أوصاف هيلى على أن الشعب الإفريقى له ماض مجيد عظيم قبل أن يستعبدهم الأوروپيون، إن على آلاف الإفريقيين فى المهاجر أن ينظروا إلى قارتهم، باعتبارها الوطن الأم، وأن يؤكدوا على هويتهم الإفريقية.

ويختم الكاتب مقاله بهذا الاستنتاج أن النقاد البيض اليوم عندما يهاجمون «ألكس هيلى» ويصورونه بأنه مخادع ، فإنهم يحاولون أن يطمسوا حقيقة التأثير المدمر الذى أحدثه الرق على الجنس الإفريقى ؛ لأن معظم الشعب الأسود ينظر إلى «الجذور» بما تضمنته ليس فقط أنها تسجيل موثق لتاريخ أسرة هيلى ، وإنما فى الأساس كشفت عبر السياق التاريخى واحدة من أخطر الجرائم التى ارتكبت ضد الإنسانية .

إنها قصة كيف سُرقنا من بيوتنا وجيء بنا إلى الغرب ، وأنسونا أسماءنا ولغتنا وثقافتنا ، إن الجذور هى شهادة لا يمكن تحديها ، إنها ترمز وتشير إلى هذه الحقيقة المرة .

* * *

وسواء كانت قصة الجذور من تأليف «ألكس هيلى» أو أنه اقتبسها من «هارولد كورلاندر» ، أو أن كونتا كنتى هو الجد السادس للمؤلف أم لا ، فإن هذه الانتقادات والتشكيك فى العمل لا يمحى أو يقلل من حقيقة أن الشباب الإفريقى كان يُصطاد بطرق متعددة ، من شن الغارات والحروب وجمع الإتاوات والاختطاف والشراء والتخلص من المجرمين ، سواء كانوا مجرمين حقيقيين أو مُدّعى عليهم . وعندما كان يُجمع عدد كاف من الرقيق كانوا يساقون إلى المستودعات الساحلية ، ثم يباعون للتجار البيض الذين يحتفظون بهم إلى حين شحنهم إلى أوروبا وأمريكا .

وهذه القوة البشرية الكبيرة التى اقترنت هجرتها بالإكراه والقهر هى التى عمرت الأرض الوفيرة فى الأمريكتين وجزر الهند الغربية ، وقامت بعبء تنمية مواردها وجعلتها أغنى مناطق العالم وأقواها ، دون أن يكسب الرقيق أية حقوق .

أما بالنسبة لإفريقيا فكانت تجارة الرق كارثة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ إذ فقدت القارة شريحة كبيرة من قوتها وثروتها البشرية ، وأحدثت حملات اقتناص الرقيق دماراً واسع النطاق ، وزادت من عدد الحروب والتمزق والاضطراب فى مجتمعاتها ، وأفقدت الحياة أمنها ، وكانت الخسائر المباشرة والأشد قسوة هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء إفريقيا الغربية أمثال كونتا كنتى .

# عبيد القرن الواحد والعشرين

مع بداية الألفية الثالثة، قرأنا فى الصحف اليومية ثلاثة مشاهد إفريقية منفصلة هزت الضمير الإنسانى:

**المشهد الأول:** قصة غريبة جرت أحداثها فى سواحل غرب إفريقيا، سفينة تضم مئات الأطفال الأفارقة بيعوا كرقيق؛ بسبب فقر أسرهم أو حاجة ذويهم إلى المال، وكان المفروض أن تنقل السفينة هؤلاء البؤساء من بنين إلى الجابون ليعملوا فى مزارعها. حاولت السفينة أن ترسو فى مرفق«دوالا» فى الكاميرون، ولكن السلطات المختصة رفضت السماح لها بالرسو بعدما كانت سلطات بنين أخطرت العالم أنها تشك فى أن السفينة التى انطلقت من مينائها تنقل ١٨٠ طفلاً تشتبه فى أن عائلاتهم الفقيرة باعتهم.

وتحرك الرأى العام العالمى وانتظر السفينة فى مرفق«كوتونو» ممثلون عن اليونيسيف ومنظمة أرض البشر والصليب الأحمر، وكانت المفاجأة أن لم يجدوا فى السفينة غير سبعة أطفال فقط نقلتهم الشرطة إلى ملجأ.

وكان السؤال: أين ذهب بقية الأطفال؟، هل ألقى بهم القبطان فى البحر بعد أن انفضح أمره، فهذا أسرع طريق لإخفاء جريمته؟. وهذا ليس جديداً على إفريقيا، فقد كان يحدث قديماً أيام كانت إفريقيا تمد أوروبا والأمريكتين بالعبيد ليعملوا دون أجر بوصفهم عبيداً تم شراؤهم. وكان لهذا الاستنزاف البشرى أكبر الأثر فى تقويض اقتصاد القارة الإفريقية فيما بعد.

**المشهد الثانى:** بضغوط مكثفة من جهات كنسية وخيرية ذات أجندة خفية

وأصحاب ديانات غريبة تبحث عن دماء جديدة، وبتسهيلات من شبكة المتاجرين باللاجئين والمرتشين من بين العاملين فى أجهزة الدولة وهيئات الإغاثة الدولية، فتحت الولايات المتحدة بصورة غير مسبوقة أبوابها دفعة واحدة لنحو ٤٢٠٠ صبى من جنوب السودان من أيتام الحرب الأهلية الذين فقدوا ذويهم وتمكنوا من الهرب والنجاة فى ملحمة مهولة، تفنن كتّاب الغرب فى وصفها من غضب الطبيعة والأنهار الهائجة والتماسيح والحيوانات المفترسة والأمراض الفتاكة. . إلخ، تجمع هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم «الجيل الضائع» أو «الأولاد الضائعين» فى كينيا، ومنذ وصول هذا الحشد من الأيتام اختفوا فى معسكر كوكاما للاجئين الواقع فى شمال كينيا بالقرب من الحدود السودانية. ولم تسعَ أية هيئة كينية أو سودانية أو عالمية للبحث عن ذويهم أو معرفة القرى التى هربوا منها، وتكتمت عليهم هيئات الإغاثة والهجرة وظلت تعدهم فى سرية تامة لتوصيلهم إلى الولايات المتحدة. لم يكن ثمة فرق جوهرى بينهم وبين المجموعات التى اختطفت من قرى غرب إفريقيا وعبرت المحيط الأطلسى فى عصور سالفة الذكر، أولئك اختيروا للعمل رقيقًا فى المصانع وحقول الأمريكيين، وهؤلاء اختيروا من بين الضائعين الذين انقطعت جذورهم الأسرية ولم يعد لهم انتماء وجدانى بأهل أو بوطن، والله أعلم بمصيرهم هل سيعملون عبيدًا كأجدادهم، أو سيكونون قطع غيار بشرية.

والحكومة السودانية دائمًا ما تُدان بأن حربها فى الجنوب هى السبب فى تشريد أمثال هؤلاء، ولا يشار إلى ما تفعله قوات التمرد وقوات جارنج التى تسيطر على قرى الجنوب، وهى التى جندت الأطفال فى جيشها واستخدمتهم كمحاربين ودروع بشرية، ذلك بشهادة المنظمات الدولية للإغاثة.

**المشهد الثالث:** امرأة شابة تُعرض للبيع فى موريتانيا، ويؤدى ذلك إلى مظاهرات فى الشوارع نظمها الهور (حركة تحرير العبيد التى أنشأها العبيد السابقون)، وانتشرت الاضطرابات فى المدن الرئيسية وعمت المظاهرات البلاد. يحدث هذا رغم أن العبودية ألغيت رسميّا فى موريتانيا ثلاث مرات، وكان عام ١٩٨٠م عام الإلغاء الثالث، وجدّت الحكومة فى تخليص البلاد من العبودية ومحو آثارها، ولكن البلد الذى عانى من الجفاف لأكثر من أربعة عقود، وتدمر بسببه نظام اقتصادى واجتماعى يمكن أن يستباح فيه أى شىء. وقد تناقلت وكالات الأنباء

الغربية هذه القصة المحزنة من قبيل التشهير بإفريقيا والإفريقيين، بدلاً من أن تحث العالم المتحضر على تقديم المساعدة الإيجابية لهذا البلد الذى يحتاج إلى العون الذى يعتقه من مشاكله أكثر من استحقاقه للنقد اللاذع.

هذه المشاهد الثلاثة تؤكد الوصف المقيت الذى توصم به قارة إفريقيا بأنها مزرعة العبودية. ومزرعة العبودية حددتها الأمم المتحدة عام ١٩٥٦م فى مؤتمر مقاومة العبودية بأنها ملكية شخص لآخر، وهى فى جوهرها معاملة الآدمى بوصفه سلعة حية وباعتباره شيئًا يُباع ويُشترى.

وجمعية مقاومة العبودية ومقرها لندن هى أقدم جمعية دولية فى العالم لحقوق الإنسان، أنشئت عام ١٨٤٠م ـ وهى تعد تقريراً سنويّا للمجلس الاقتصادى والاجتماعى، وهو تقرير يلحق بلجنة حقوق الإنسان ـ وهى تعتبر أن استغلال عمل الأطفال هو صورة حديثة للعمل العبودى، فالأطفال يعملون طول النهار وكل يوم من أجل قروش زهيدة، وهم لا يتعلمون، وليس لديهم إمكانية عمل رخيص غير ماهر، ويقدر هؤلاء بنحو ٢٠٠ مليون أغلبهم من إفريقيا.

وعمل الأطفال ينمو فى الدول النامية التى تخضع لقيود البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، وترتبط باقتصاديات التصدير ويزداد فيها تعداد السكان بما يجاوز إمكانيات التنمية، ومن ثم يكون الفقر هو العنصر الذى لا مهرب منه وهو السبب والنتيجة لاستغلال عمل الأطفال.

وإذا كان عمل الأطفال يصنف على أنه شكل من أشكال العبودية، ألا تعد ديون العالم الثالث للدول الدائنة شكلاً آخر للعبودية المعاصرة، ولكن لا أحد يشير إليه.

* * *

# خاتمة الطواف

## اكتشاف يضيء تاريخ إفريقيا

obeikandl.com

obeikandl.com

## «ثولا ميلا»
## اكتشاف يضىء تاريخ إفريقيا

«ثولا ميلا» اكتشاف أثرى جديد مثير فى الجنوب الإفريقى، جاء من وراء التاريخ ليخاطب الحاضر، ويدحض الفكرة العنصرية بأن إفريقيا قبل استعمارها كانت قبائل بدائية متخلفة بلا حضارة ولا تاريخ، مجرد جماعات همجية تتنقل من مكان إلى آخر سعيًا وراء العشب والمرعى.

جاء هذا الاكتشاف الأسطورى ليثبت أن المنطقة التى تقع بين حدود موزمبيق وزيمبابوى وشمال جنوب إفريقيا نشأت فيها حضارة قديمة على قدر كبير من التقدم، تدل شواهدها التى اكتشفت مؤخرًا أن أهلها كانوا بارعين فى صناعة الذهب والمعادن والملابس، ولديهم علاقات تجارية واسعة وصلت إلى الصين، باختصار أنه منذ القرون المبكرة قامت دولة على قدر كبير من التعقيد والتركيب فى الجنوب الإفريقى.

وهذا الاكتشاف يضىء تاريخ المنطقة، ويصحح كثيرًا من المفاهيم الخاطئة عن ماضى إفريقيا المجهول، ولأن الحدود السياسية والفواصل بين القبائل والشعوب لم توضع وترسم إلا بعد الغزو الاستعمارى للقارة فى القرن التاسع عشر، فإن تأثير وشواهد حضارة «ثولا ميلا» نجده منتشرًا بين هذه الدول الثلاث.

اكتشف «ثولا ميلا» عالم الآثار «سيدنى مولار» بالاشتراك مع المجلس الوطنى لحقول الذهب فى جنوب إفريقيا (وهو أقدم مؤسسات المناجم هناك)، أثناء التنقيب فى هذه المنطقة التى ظلت غير مطروقة حتى عام ١٩٤٤م.

وأثبت التحليل العلمى لآثارها ، وبقايا الحفريات التى وجدت على قمم التلال أنه قامت هناك أسر ملكية قوية حكمت هذه المنطقة بين عامى ١٢٠٠ ، و١٦٠٠ بعد الميلاد، وأمدت الأعمال الفنية و الحرفية التى وجدت فيها بتصور عن الحضارات الإفريقية فى هذا الجزء من القارة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر الميلاديين، وأنها كانت أيام مجدها موطنًا لأمهر الحرفيين الذين حازوا قدرات فنية وتكنولوچية عالية، خاصة فى صهر الذهب والنحاس والحديد والبرونز وفى صناعة المجوهرات وأدوات الزينة البالغة الدقة والرقة ، كما كانوا ينسجون الملابس وينتجون أوعية من الخزف بالغة الجمال .

وفى عام ١٩٩٦ م اكتشفت بعض آثار حضارة «ثولا ميلا» أهمها اكتشاف قبر يظن أنه خاص بأحد الملوك، كان جسده مسجى فى وضع يتجه إلى الشمال، كما وجدت بعض الحاجيات تحيط به، ومن بينها نوع من الطبول الحديدية لا توجد مثلها إلا فى منطقة الشاطئ الغربى لإفريقيا، وثمة دلائل تشير إلى أن هذا الملك دفن تحت أسوار منزله، وأنه بعد وقت قصير لوفاته انتهت دولة «ثولا ميلا»، وقد أطلق على هذا الرجل اسم الملك النمر ؛ لأنه وجد فى المقبرة رسومات لنمور .

أما الأثر الثانى الذى وجد فى المقبرة فكان رسمًا كاملاً لامرأة تضم يديها تحت خدها الأيسر بإيماءة من الاحترام ، وتتجه نحو الشمال فى مواجهة حجرة الملك، وهى تتحلى بمصاغ ذهبية، وتشير البحوث إلى أن هذا الرسم كان لأميرة توفيت حوالى عام ١٥٥٠م، وكانت تبلغ من الطول نحو ١٧٣ سم وفى سن ما بين ٤٥ ـ ٦٠ سنة .

لم يترك شعب «ثولا ميلا» إلا القليل، لذلك فالمعلومات المتاحة عنه تعتمد أساسًا على الحفريات ، والتقاليد الباقية، وتقديرات البرتغاليين الذين كانت سفنهم البحرية تجوب سواحل جنوب إفريقيا عندما كانت حضارة «ثولا ميلا» قائمة .

ولكن ما يجعل حضارة «ثولا ميلا» متميزة وفريدة أنها بقيت بكرًا لم تمس، فالقبور الملكية التى توالى اكتشافها وجدت على وضعها لم تستلب، ومن ثم ظلت محتفظة بآثار قيمة للنخبة التى كانت تحكم وتسيطر على هذه المنطقة فى سهل لمبوبو . وبتتبع طرق التجارة القديمة يظهر أن «ثولا ميلا» كانت نقطة التقاء بين

الشمال والجنوب والشرق والغرب فى الجنوب الإفريقى، ومن ثم كانت مركز التجارة الرئيسى وقتها.

* * *

## مراحل الحضارة الإنسانية

تشير الحفريات التى وجدت بمستوياتها المختلفة أن هناك ثلاث مراحل من الحضارة الإنسانية قامت فى «ثولا ميلا»: **الفترة المبكرة الأولى** تقع حوالى عام ١٢٠٠ م ولم يكن الناس وقتها يقيمون أبنية ولا يمارسون التجارة، و**الفترة الثانية** أو **الوسيطة** تقع ما بين عامى ١٤٠٠ ، و١٥٠٠ م وهنا تظهر بداية بناء الشرفات من الحجارة، كما توجد دلائل على قيام تجارة مع الهند عبر المحيط الهندى، و**الفترة الثالثة والأخيرة** فيما بين ١٥٠٠م- ١٦٠٠ م وهى التى وجدت فيها صناعة الذهب والمجوهرات التى تتميز بجمال غير عادى، فكان صهر الذهب من الصناعات المبدعة فى المنطقة.

كما وجدت صناعات حرفية أخرى كأدوات من المعادن والصفائح والأسلاك الرقيقة وأوان وأحجار من السيراميك وإبر بطول ٨ سم (وهذا يؤكد أن أهالى ثولا ميلا كانوا يصنعون الخيوط). ويشير أيضًا إلى وجود قاعدة صناعية متطورة كانت تعتمد على التجارة الخارجية وعلى العلاقات الدبلوماسية؛ إذ كانت تأتيهم من غرب إفريقيا صناعات من الحديد المصهور والأدوات والشفرات والأجراس الملكية، ومن الصين قطع البورسلين، ومن الهند الخرز الزجاجى.

ويمكن القول إن «ثولا ميلا» كانت مركزًا تجاريًا، كما كانت مقرًا للحكم ومقرًا للملكية فى المنطقة، وهناك وثائق برتغالية ترجع إلى القرن السادس عشر توضح أن عشرات من الزوارق العربية كانت تحمل الذهب والعاج كل شهر من المنطقة المعروفة الآن باسم «مابوتو» (على الحدود بين زيمبابوى وجنوب إفريقيا)، وهذا يعطى فكرة عن حجم التجارة الخارجية التى كان يسيطر عليها ملوك « ثولا ميلا» والمراكز الحضارية الأخرى فى زيمبابوى.

لم يعرف عدد سكان «ثولا ميلا» فى ذروة عظمتها أو قبل ذلك، ولكن ما بين عامى ١٦٥٠م، و ١٧٥٠م تشتتوا وتركوها، ويحتمل أن يكون هذا جزءًا من النظام العقيدى المتعلق بوفاة الحاكم ،أو يكون نتيجة للكوارث الطبيعية أو الحروب؛ لذلك

يندر وجود قبور بشرية أو هياكل عظمية من بقايا هذه الفترة، وإن بقيت آثارها تتطابق فى الكثير مع الأوضاع الثقافية فى زيمبابوى.

كما تشير وثائق برتغالية إلى أنه فى عام ١٦٩٠م تحركت جماعة من زيمبابوى تعرف باسم «سنجو» نحو الجنوب وغزت «ثولا ميلا» واستخدمت العنف ضد أهلها، وقضت على مراكزها الحضارية، ولا يعرف ما الذى حدث لآخر ملوكها فقد انقطع ذكرها بعد ذلك تماماً.

يذكر المؤرخ «قطب الدين النهروالى» ١٥٨٢م فى مؤلفه «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى»: «أن البرتغاليين وهم طائفة من الفرنجة الملعونة وصلوا المحيط الهندى فى القرن العاشر الهجرى، وهددوا بحرق المدن الساحلية الإفريقية ما لم تدفع فدية كبيرة وتقدم الولاء للشبونة، وكان هذا أفظع الحوادث الرهيبة».

والحقيقة أن وصول البرتغاليين إلى الساحل الشرقى لإفريقيا كان بداية انهيار الحضارات الإفريقية والقضاء عليها وطمس معالمها، ولا يمكن تقدير الخسائر التى حلت بهذه الآثار، فقد خرّب هؤلاء المغامرون أشطاراً من تاريخ إفريقيا وطمسوها إلى الأبد.

وقد ألقت الكتابات عن رحلة «فاسكو داجاما» لكشف رأس الرجاء الصالح، بصيصاً من الضوء على هذه الحضارات القديمة، التى كانت قائمة ومزدهرة قبل أن تدمرها جحافل المستعمرين، وتذكر هذه الكتابات أن عدداً من المغامرين البرتغاليين من أمثال «بارتولو ميوديا» ١٤٨٨ م سبقوا «داجاما» إلى هذه المنطقة، ولكن داجاما بأسطوله هو الذى توغل فى الداخل ووصل إلى نهر كويليمان فى موزمبيق عام ١٤٩٧م. وتشير وثائق الرحلة إلى أن هذه المنطقة كانت تدخل فى النفوذ العربى، ففى تلك الأيام كان العرب سادة المحيط الهندى بلا منازع، ويمارسون التجارة بحرية فى المنطقة؛ لذلك تظاهر «فاسكو داجاما» أمام السكان المحليين الذين لم تكن لهم معرفة بالأوروبيين بأنه هو ورجاله مسلمون. وهكذا استقبل السلطان المحلى البرتغاليين فى بادئ الأمر بلطف وترحاب، وعندما حاول البرتغاليون الوقوف على معلومات عن داخل إفريقيا؛ إذ كانوا يبحثون بصفة خاصة عن مملكة «بيترجون» التى تقول الأساطير إن بيترجون كان ملكًا مسيحيّا حكم مملكة غنية غنى أسطوريّا تقع داخل هذه المنطقة من إفريقيا، أورثت تساؤلاتهم عن المملكة الشك

لدى السلطان. وتصادف أن رأى هنديان من معتنقى الديانة المسيحية (كان قد جىء بهما أسيرين من الهند) علامة سفن فاسكو داجاما، فأيقنا أنه وبحارته مسيحيون مثلهما، وكشفا بذلك عن هوية داجاما وجماعته. فدار قتال بين السكان المحليين والبرتغاليين حتى رحل داجاما متجهًا بسفنه إلى الهند.

ومنذ ذلك التاريخ ظل الاقتتال يدور بين الأهالى المحليين وكل من هو أجنبى، حتى سقطت إفريقيا فى قبضة المستعمرين الأوروبيين بأجناسهم المختلفة فى القرن التاسع عشر.

ما يهمنا من رحلة داجاما هو ما كتبه البرتغاليون عن وصف ثراء الممالك الزنجية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، وأنها كانت آهلة بالسكان ولا تقل نشاطًا عن مدنهم فى البرتغال، وهذه الأقاويل عن غنى تلك الممالك وثرائها الوفير بالذهب وتجارتها البحرية النشطة، هى ما جعلتها مطمع المغامرين الاستعماريين. كتب المؤرخ البريطانى الشهير «بازل ديڤيدسون» فى كتابه القيم «إفريقيا تحت الأضواء» نقلا عن الرحالة البرتغالى «دوارث باربوسا» سنة ١٥١٧ م الذى كان على ظهر أول سفينة برتغالية مرت على الساحل الشرقى لإفريقيا فى طريقها إلى الهند، يصف حاكم مملكة يسمى «مونوموتابا»: إنه صاحب إقليم واسع الأرجاء شاسع الأطراف، بعيد داخل القارة، يصل رأس الرجاء من ناحية وموزمبيق من ناحية أخرى. إن ما شق على أوروبا أن تصدق هذا الادّعاء على فرضه أيدته لهم شواهد أخرى كثيرة من قبل، فما كان أحد يعرف شيئًا يستحق عن القارة، كانت معارف الناس نتفًا من حقائق لا يصل ببعضها البعض شىء، فما امتلكت هذه الشعوب سلاحًا - وإن امتلكته فيما بعد - ولا مثير فى هذا، فأوروبا لم تكن عرفت كثيراً منه فى ذلك الحين، حملت السفينة القائدة فى أسطول «فاسكو داجاما» أكثر من عشرين مدفعًا من الحديد المصهور والنحاس، وكانت تعد قوة ضاربة فى ذلك الزمان، على أنهم لم يتغلبوا فى سهولة على الإفريقيين الذين كانوا يحملون سيوفًا من صنعهم ودروعًا لا تقى نار المدافع. لقى البرتغاليون مقاومة عنيفة، وأدركوا أنهم أخطأوا التقدير حين حسبوا أنهم أمام عدو لا شأن له بحضارة، لقد تفوقوا عليهم بالسلاح ولم يكن هذا التفوق كبيراً، ولكن هؤلاء كانوا يتفوقون عليهم فى العدد، ويحاربون من أجل قصد واضح محدد هو حماية ديارهم وما يملكون،

وكان زعماؤهم أقدر ما يكون الزعماء فى الحرب والقيادة لا يعصى لهم أحد أمراً ولا يرحمون من تخاذل. هذه كانت الحال فى الداخل البعيد من القارة، وطبيعى أن تكون مدن الساحل أكثر مدنية وثقافة لكثرة ما رأت من تجار وتجارة، وكانت لا تقل فى هذا عن مدن أوروبا الزاهرة، بل تفوق بعضها. وسجل «باربوسا» فى مذكراته كيف كان الناس هناك يبيعون مقادير ضخمة من الذهب والعاج والشمع، وكان التجار يأتون بالذهب من مكان بعيد اسمه «مونوموتابا» به نوع خاص من الذهب يسميه البرتغاليون «ذهب الرمل»؛ لأنه يشبه ذرات الرمل الصغيرة وإن كان أجود أنواعه.

وقد أثارت هذه المذكرات وغيرها مما كتبه الكاتبون شهوة البرتغال، فعملت على السيطرة على مصادر هذا الربح والاستيلاء على التجارة التى تدره، وصار هذا هدفًا من أهداف الجهود البحرية البرتغالية.

* * *

هذا ما أشار إليه المؤرخ البريطانى بازل ديفيدسون، وحقيقة أنه فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ظهر فى المنطقة الواقعة بين نهرى الزمبيزى وليمبوبو قائد حربى ماهر يسمى «مونوموتابا»، كانت له تطلعات توسعية، استطاع فى عام ١٤٢٥م أن يستولى على هذه المنطقة الغنية بمناجم الذهب (وهى المنطقة التى اكتشفت فيها مؤخراً حضارة ثولا ميلا)، وأخضع أهلها ثم اتجه شرقًا واستولى على المدن والموانئ الواقعة على سواحل موزمبيق، وفى عهده اتسعت مملكته التى عرفت باسم «زيمبابوى الكبرى» وأنشئت فيها المبانى والقلاع والقصور الضخمة، ويقال إن الناس فى حضرته كانوا لا يسجدون له فقط، وإنما ينبطحون أرضًا ويزحفون على بطونهم عند دخولهم إليه أو خروجهم من عنده.

وما أن انتصف القرن الخامس عشر حتى أصبحت مملكة مونوموتابا وعاصمتها زيمبابوى الكبرى مسيطرة على جميع المساحات الواقعة بين نهر الزمبيزى والمحيط الهندى، والممتدة نحو أكثر من ألف كيلومتر من روديسيا الجنوبية (زيمبابوى الآن) حتى الحدود الشمالية للترانسفال فى دولة جنوب إفريقيا الحالية.

اعتبرت «زيمبابوى الكبرى» أكبر وأعظم مدينة بنيت بالأحجار فى جميع مناطق

إفريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى، وظلت مزدهرة وحصينة وبعيدة عن منال الطامعين حتى بدايات القرن التاسع عشر. وتبين الدراسات التى أجريت على بقايا وآثار زيمبابوى الكبرى أن هذه المدينة لم تبن دفعة واحدة، بل أخذت تتسع على مدى قرون متعاقبة بفضل الإضافات التى كانت تجريها الأجيال المتتالية.

وترجع أقدم الآثار الموجودة من أطلال «زيمبابوى الكبرى» إلى نحو ألف عام مضت، وتقوم مبانيها على أساس فكرة البناء الدائرى أو البناء المستدير، وهى فكرة مستلهمة من فكرة بناء الأكواخ العشبية والطينية ذات الشكل الإفريقى التقليدى.

ومن أعظم وأضخم المبانى التى شيدت فى عهد مونوموتابا قلعة الجبل التى عرفت باسم «الأكروبوليس»، والمعبد أو القصر الكبير الذى بنى على سفح الجبل تحت القلعة، وقد تم تشييد هذه الأبنية الضخمة بأحجار الجرانيت المحلية الموجودة بكثرة فى المنطقة.

واعتبرت هذه المبانى الجرانيتية من عجائب الدنيا؛ إذ لم تستعمل المونة أو الملاط فى لصق أحجارها عند التشييد، وإنما تم ذلك بدون استعمال أى مواد لاصقة، ورصت الأحجار الجرانيتية بعد نحتها وتسويتها فوق بعضها البعض بطريقة التوازن النسبى بين الكتل الحجرية المستعملة فى البناء، وكانت الكتل تنحت بطريقة عاشق ومعشوق وبطرق أخرى أكثر تعقيداً.

وتدل الآثار الباقية من المعبد (القصر الكبير) أنه كان يشغل مساحة قدرها نحو تسعين متراً طولاً وستة وسبعين متراً عرضًا. وكان مبنيّا بأكمله من الجرانيت، مكونًا من عدة مبان متكاملة، تتصل ببعضها البعض عن طريق ممرات جرانيتية ذات جدران ترتفع نحو تسعة أمتار وسمكها يزيد على أربعة أمتار. أما برج القصر فكان ذا شكل قمعى مبنى من الجرانيت بارتفاع نحو عشرة أمتار. وكانت تضاف إلى قلعة الجبل أبنية وإضافات جديدة لتجعلها أكثر قوة ومتانة، واستمرت هذه الإضافات حتى منتصف القرن الثانى عشر.

وقد عاشت مملكة مونوموتابا حتى بداية القرن السابع عشر حين غزتها من الشمال قبائل الروزوى ، وهى فصيل من قبائل البانتو التى زحفت نحو زيمبابوى

الكبرى ، واستولت عليها ، وطردت الأسرة الحاكمة ، وشردت شعب مملكة مونوموتابا ، وتولت العرش ، وأسست مملكة جديدة هى مملكة الروزوى ، وظلت تتخذ من زيمبابوى الكبرى عاصمة لها .

أما شعب مونوموتابا فقد تشتت فى الجنوب ، ولجأ إلى البرتغاليين طالبًا حمايتهم من مملكة الروزوى ، وكان البرتغاليون قد استقروا وسيطروا على سواحل جنوب شرق إفريقيا ، كان هدف البرتغاليين من التظاهر بحماية شعب مونوموتابا هو تسخيرهم لمعرفة أسرار مناجم الذهب المنتشرة فى مملكة زيمبابوى ، بالإضافة إلى تسخيرهم فى الإغارة على المناطق الجنوبية الداخلية بالقارة لقنص العبيد وتسليمهم للنخاسين البرتغال . وحين اكتشف شعب مونوموتابا هذه الحقيقة المفجعة فى العلاقة بينهم وبين البرتغال شدوا رحالهم منعزلين فى أقصى مناطق جنوب إفريقيا ، ولكنهم لم يفلتوا من البرتغاليين وظلوا تحت رحمتهم .

واستمرت «زيمبابوى الكبرى» عاصمة لمملكة الروزوى ، وازدادت قوتها واتسع عمرانها وتحصنت قلاعها لدرجة أنها أصبحت فى منأى عن أطماع البرتغاليين ، حتى انهارت دون أن يعرف تاريخ لانهيارها .

وقد حاول البرتغاليون وغيرهم من المستعمرين الأوروبيين أن يصلوا إلى مدينة زيمبابوى الكبرى ، فلم يستطيعوا الوصول إليها ، إلا فى منتصف القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٤٠ م بعدما انهارت إمبراطورية الروزوى آخر ممالك وإمبراطوريات قبائل البانتو .

وحين اكتشفت آثار وأطلال مبانى ممالك البانتو فى زيمبابوى الكبرى لم يتصور علماء الآثار أن هذه المبانى الضخمة كانت من صنع الإفريقيين ، وأوعزوها إلى شعوب أخرى غير إفريقية ، ولكن ثبت علميًا وتاريخيًا أن جميع هذه المدن الإفريقية الجرانيتية كانت من تصميم بنائين ومهندسين إفريقيين من قبائل البانتو ، التى صنعت حضارة على هذا القدر من العظمة طوال عام ألف وخمسمائة من تاريخ إفريقيا ، ويشهد بذلك عالم الآثار البريطانى «داڤيد راندل مكايفر» الذى كتب : «أن آثار زيمبابوى وغيرها مما يشابهها تمتد إلى أصول إفريقية ، وأن هذه الآثار ترجع إلى عهد أقدم من القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، وهى من الناحية المعمارية لا تحمل أى

طابع شرقى أو أوروبى من أى عهد من عهود البناء فى الشرق أو الغرب، فالمساكن المحيطة بالقصور والمعابد إفريقية خالصة لا شك فى إفريقيتها. وكذلك الفنون والصناعات التى عثر عليها إفريقية الأسلوب فى فنها وصناعتها، إلا تلك الآثار التى كان يستوردها الأهالى، وهذه واضحة الأسلوب معروفة التاريخ فى العصر الوسيط أو بعده.

والحقيقة أيضًا أن مدينة «زيمبابوى الكبرى» لم تكن المدينة الجرانيتية الوحيدة فى مملكة مونوموتابا، بل كانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدينة جرانيتية أخرى عثر على بعض آثارها وبقاياها فى مناطق زيمبابوى وموزمبيق، ولعل مدينة «ثولا ميلا» هى إحدى هذه المدن الأثرية الإفريقية القديمة المجهولة.

* * *

obeikandl.com